اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/على عبد الواحد وافى

القاهرة

من التاريخ

«٣»

بعض مؤرخي الإسلام

تأليف

علي أدهم

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقي

مقدمة

فصول هذا الكتاب تتناول مؤرخين عاشوا وكتبوا فى ظلال الحضارة الإسلامية ، وقد قرأت لهم ، وأنست بقربهم ، واستروحت إلى أحاديثهم ، وطالت صحبتى لهم على تباعد أوطانهم وتفاوت عصورهم واختلاف مذاهبهم . وقد تعودت أن أقرأ للمتعة وحب الاستطلاع قبل أن أقرأ للبحث والدراسة والتماس الفوائد ، فإذا استمالنى كاتب أو شاعر أو مؤرخ أو فيلسوف ونعمت بصحبته أقبلت عليه ، وعملت على قراءة كل ما تيسر لى الحصول عليه من مؤلفاته وآثار قلمه ، وأتبعت ذلك بمحاولة قراءة ما كتبه عنه نقاده ودارسو أدبه ، سواء من أنصفه منهم ووفاه حقه أو من غمطه وجار عليه ، لأزداد به معرفة وله تقديراً ، وقد سرت على هذه الخطة منذ أول عهدى بالقراءة والاطلاع ، ولم أر بعد طول التجربة مايدعو إلى تغييرها والعدول عنها .

ولم أقصد بفصول هذا الكتاب إلى البحث المستفيض والاستقصاء المستوعب ، وملاك الأمر أنى أنفقت ساعات ممتعة مع هؤلاء المؤرخين ، وقد دفعنى ذلك إلى أن أتعرف أشياء عن مؤلفاتهم ونشأتهم وملابسات حياتهم ، وأن أسجل ذلك فى الكتابة عنهم والتعريج على ذكراهم . والحق أقول إنى راقتنى محاسنهم ومزاياهم ، ولم يغض من إعجابى بهم ، وتقديرى لهم ، ماتبينته فى كتبهم من وجوه النقص ودواعى القصور . وذلك لأنى أعرف صعوبة الكتابة التاريخية ، وحاجتها إلى المواهب المتعددة ، والمزايا النادرة ، والمؤرخ المثالى يجمع بين دقة ملاحظة العالم ونزاهته ، وبداهة الفنان وألمعيته ، وزكانة الفيلسوف وبعد غوره ، ولذلك لم يظهر كبار المؤرخين فى مختلف الحضارات إلا فى أوقات النضج والاكتمال . وليست القدرة على كتابة التاريخ من الهبات التى تجود بها الطبيعة فى يسر وإسماح ، وإنما هى ثمرة من ثمرات الثقافة المستمكنة الأصيلة . وقد يبدو أنه من السهل اليسير

أن ينظر الإنسان إلى الحقيقة التاريخية نظرة طبيعية ، وأن مجرد المشاهدة كافية للقدرة على تسجيلها وإثباتها ، ولكن الأمر على نقيض ذلك ، لأن صدق الرؤية والقدرة على وصفها يتطلبان انطلاقاً من أسر الخيالات والأوهام والخرافات ، ومعرفة بقوانين الطبيعة وطبائع البشر ، وسعة فى النظر وأناة فى إصدار الأحكام لا توجد عند الأمم البدائية ولا فى فجر الحضارة ، ومما هو جدير بالملاحظة أن ظهور هومر فى الحضارة اليونانية سبق ظهور المؤرخ هيرودت بقرون عدة ، وفى تاريخ الأدب الإيطالى نرى ظهور الشاعر دانتى قد تقدم ظهور المؤرخين مكيافلى وجويكشارديني ، وفى تاريخ الأدب الإنجليزى أظهر شكسبير براعة لا نظير لها فى تصوير الأخلاق والمواقف ، وقد ظل المؤرخون الإنجليز يتعثرون فى كتابة التاريخ حتى عهد شارل(١) الثانى ، وبعض الأمم القديمة وصلت إلى مستوى عال من الحضارة وقصرت مع ذلك فى فن كتابة التاريخ .

وقد تكبر فى عيوننا عيوب مؤرخى الإسلام إذا عقدنا الموازنة بينهم وبين كبار مؤرخى الغرب فى القرن التاسع عشر — وهو قرن ازدهار فن كتابة التاريخ فى رأى الكثيرين من الثقات العارفين — وذكرنا أسماءهم إلى جانب أسماء أمثال كارلايل وماكولى وفرود عند الإنجليز ، ورينان وتين وميشليه وأضرابهم عند الفرنسيين ، وموسن وفون رانك وتريتشكه عند الألمان ، وربما أغرانا ذلك بانتقاصهم ، والنيل منهم ، وتهوين أمرهم ، ولكننا نسىء إليهم ولا نجمل فى هذه الموازنة ، وليس من الإنصاف أن نطلب من المؤرخ أو غير المؤرخ أن يحلق فوق مستوى عصره ، ويمعن فى الابتعاد عن آفاق زمنه ، والكثيرون من مؤرخى الإسلام قد استوعبوا معلومات عصرهم ومعارفه ، ومثلوا ثقافته أحسن تمثيل .

وبعض فصول هذا الكتاب كنت أعددتها للإذاعة حينما عهد إلى فى الحديث عن عيون كتب الأدب العربى ، وبعضها نشر فصولا متفرقة فى مجلة الثقافة ، ولكنى حينما بدا لى جمعها بين دفتى كتاب أعدت النظر فيها وزدتها بسطة وتنقيحاً

---

(١) أحد ملوك بريطانيا من أسرة إستيوارت ولى الملك من سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٦٨٥ ميلادية .

ومراجعة وتحقيقاً ، وأضفت إليها بعض ما استجد لى من المعلومات ، وجال بنفسى من الأفكار .

ويبدو لى — إذا لم أكن قد أخطأت فى الملاحظة — أن الجيل الناشىء قليل العناية بالتراث الأدبى القديم ، زاهد فى معرفة أمثال هؤلاء المؤرخين ، ولست بسبيل تحليل الأسباب التى دعت إلى ذلك ، فإذا وفقت هذه الفصول فى توجيه جانب من عنايته إلى هذه الكنوز الثمينة والموارد العذبة فإنها تكون قد حققت إحدى الغايات الهامة التى قصدتها من وراء جمعها فى هذا الكتاب .

مؤرخو الطليعة

يشعر الناس بأنهم يقضون حياتهم فى الدنيا بين أبديتين ، وهما أبدية الماضى وأبدية المستقبل ، ولذا لا يكفون عن التلفت إلى الماضى ، ولا يسأمون التطلع إلى المستقبل ، وكل إنسان إلى حد ما مؤرخ يحتفظ فى ذاكرته بطوائف من الذكريات السارة والمحزنة ، وما ينفك ينشر صحائفها ويطويها حتى يصبح هو نفسه ذكرى من الذكريات ، وصدى من أصداء السنين الخالية . والتاريخ للأمم بمثابة الذاكرة للفرد ، وكل أمة مهما كانت متخلفة فى مضمار الحضارة لها نصيبها المقسوم من الذكريات الحلوة والمرة ، وهذا النصيب المقسوم هو ما يسمى تاريخها ، وحينما انبثقت أنوار الإسلام فى شبه الجزيرة العربية كان للعرب نصيبهم المقسوم من الأخبار التاريخية التى تختلط فيها الحقائق بالأساطير اختلاطاً يجعل التمييز بينهما من أشق الأمور لعدم وجود مدونات يرجع إليها عند المقابلة والتمحيص والوزن والتحقيق ، وكان أكثر هذه الأخبار يدور حول ما يسمى « أيام العرب » ، وحروبهم قبل الإسلام ، وأنسابهم ، وأخبار بعض القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس ، وشذرات مما سمعوه من أخبار التوراة والتلمود . ولم يكن العرب فى الجاهلية أمة بدائية كما قد يتبادر إلى الذهن ، وقد كان العصر الجاهلى فترة طويلة الأمد بين حضارات العرب القديمة فى اليمن وبتراء وتدمر والحيرة وبين الحضارة الإسلامية ، ولم تكن الكتابة فى العصر الجاهلى واسعة الانتشار ، ولكنها مع ذلك لم تكن مجهولة ، بل كانت شائعة الاستعمال فى كتابة العهود والمواثيق والصكوك والرسائل ، ولكن العقلية الجاهلية كانت أقدر على قرض الشعر منها على معالجة كتابة التاريخ ، كانت عقلية شديدة التعصب للقبيلة نزاعة إلى الأسطورة والخرافة ، قليلة الصبر على المراجعة والتحقيق ، متشبعة بروح عصرها وتقاليده ، معتزة بعروبتها ، محتقرة لغيرها من الأمم ، وهذه الحالة لا تعوق قرض الشعر ،

بل قد تكون من بواعث نظمه ، لأن فيها مايثير الخيال ، ويحرك العاطفة ، ولكنها عقبة فى طريق النضج الذى تستلزمه كتابة التاريخ .

ولما ظهر الإسلام شغل المسلمون بالفتوح والحروب والغزوات حتى توطدت مكانة الإسلام ، ورست قواعده ، وعلت كلمته ، واستوسق له الأمر ، ولما هدأت فورة الفتوح ، وحدث نوع من الاستقرار النسبى ، بدأ المسلمون يتجهون إلى إثبات الأخبار وتسجيل الحوادث ، وأقبلوا على جمع الأحاديث النبوية وتفسير القرآن .

وقد نشأ التاريخ الإسلامى نشوءاً طبيعياً استجابة لحاجة المجتمع الإسلامى . والظاهر أن مؤرخى العرب لم يعرفوا كتب التاريخ اليونانية أو الرومانية ، لأن شيئا منها لم يترجم إلى اللغة العربية ، ولذا نشأ التاريخ الإسلامى على غير مثال سابق ، وكشف عن خصائص الأمة الإسلامية ، وأغلب مؤرخى المسلمين لم يكونوا من المؤرخين الرسميين الذى تكلفهم الدولة الرجوع إلى الوثائق ، وجمع الأسانيد ، وكتابة التاريخ ، وإنما كانوا يتقدمون بمؤلفاتهم التاريخية إلى المجتمع الإسلامى برمته ، ولا يعيشون فى كنف الأمراء ، ولا يعتمدون على معونة الدولة ، ولم تخل كتاباتهم بطبيعة الحال من التأثر ببيئتهم ، ونزعتهم المذهبية ، وعقيدتهم السياسية ، ولكن حظهم من النزاهة كان موفوراً إلى حد كبير ، فهم لم يكتبوا التاريخ إرضاء للخلفاء والأمراء ، وإنما كتبوه بدافع من ميلهم إلى البحوث التاريخية ، وخدمة للمجتمع الإسلامى بوجه عام .

وفى أول الأمر كان التاريخ ممتزجا برواية الحديث وتفسير القرآن ، وذلك لأن المسلمين لما اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره واستقصاء الأحاديث احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التى نزلت فيها الآيات ، والمشاهد التى وردت فيها الأحاديث ، ولذا عمدوا إلى جمع أخبار السيرة النبوية قبل كل شىء ، وقد حوى القرآن الشرائع والأحكام والأخبار ، وكان هم المسلمين تلاوته ، وتفهم أحكامه ، لأنه قاعدة الدنيا والدين ، وفيه نهج الحياة السليمة فى الدنيا والإعداد للحياة الباقية فى الآخرة ، وفيه

الأحكام التى تؤيد السلطة وتشد أزر الخلافة ، وقد أشكل عليهم فهم بعض أحكامه، وتفسير بعض معانيه، فعمدوا إلى الأحاديث المأثورة ليستعينوا بها على توضيح المشكل ، وصار همهم جمع الأحاديث ممن سمعها أو رواها عن أحد سامعيها بالإسناد المسلسل ، وقد وجدوا تباينا ولونا من ألوان التناقض فى الروايات فبذلوا جهداً فى التفريق بين الصحيح والزائف ، وقد جرهم ذلك إلى درس طبقات المحدثين والأحوال التى تناولوا فيها الأحاديث .

وفى القرآن إشارات إلى الأمم الخالية ، والقبائل البائدة ، والأنبياء السابقين، ولذلك حرص المسلمون على فهم هذه الإشارات وتوضيح مدلولها ، وكان الإسلام قد أظل الكثيرين من اليهود والنصارى ، فاستعان بهم المسلمون على توضيح هذه الإشارات ، وحدثهم هؤلاء عن أصول هذه الإشارات فى التوراة والتلمود ، فضم المسلمون هذه الأخبار إلى التفسير والتاريخ ، وقد اشتهرت باسم الإسرائيليات ، وكان فى طليعة من لهم أثر بارز فى ذلك كعب الأحبار المتوفى سنة ٣٤ هجرية ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هجرية .

ومن العوامل التى ساعدت على تنشيط الحركة التاريخية النظام المالى فى الحكومة الإسلامية ، لأن الخراج الذى كانت تؤديه البلاد التى فتحها المسلمون كان يختلف حسب فتحها صلحا أو عنوة أو بعهد ، وتبعا للأحداث السياسية والاجتماعية التى حدثت فى أثناء الفتح ، ولذلك كان الأمر يقتضى بحث تاريخ الفتح ، وكان نظام العطاء كذلك يستلزم معرفة الأنساب والسوابق فى الدفاع عن الإسلام ر دعوته .

وقد أثارت هذه العوامل مجتمعة الوعى التاريخى عند المسلمين، وأدت إلى تكاثر خبار التاريخية ، وبدأ تدوين بعض هذه الأخبار المتناثرة الدائرة على أفواه ـواة فى رسائل موجزة ، وفى نطاق جد محدود فى عهد معاوية ، ولا يعرف على وجه التحقيق مؤلف أول كتاب أو كتيب فى التاريخ الإسلامى ، ويتنازع فضل

الأسبقية فى هذا المضمار أربعة رجال وهم زياد بن أبيه ، فقد نسبوا إليه كتابا ألفه فى مثالب العرب ، وإذا صحت نسبة هذا الكتاب إليه فأغلب الظن أنه ألفه بعد مسألة استلحاق معاوية إياه ، فقد أثار هذا الاستلحاق ضجة فى العالم الإسلامى ، ولم يخف بعض الشعراء سخريتهم بمهزلته ، ومن المحتمل أن يبعث ذلك زياداً على تأليف هذا الكتاب ليكون سلاحا يرد به التهجم على نسبه. ومهما يكن من الأمر فإن هذا الكتاب من الكتب المفقودة ، وقد توفى زياد سنة ٥٣ هجرية .

ودغفل النسابة يعزى إليه تأليف كتاب التظافر والتناصر ، وهو كتاب أسمار شائقة وأحاديث طلية ويحوم الشك حول حقيقة تأليف هذا الكتاب ، وإذا صح وجوده فهو من قبيل كتب الأسمار والنوادر وليس من كتب التاريخ الخالص والأخبار الموثوق بصحتها .

ونسب بعض الرواة مدونات إلى عبد الله بن عباس ، ولا يذكرون أنه أطلق عليها اسماً خاصا ، والأرجح أنها كانت تتضمن بعض ما كان يقوله فى مجالسه التى كان يفسر فيها القرآن .

ورابع هؤلاء الرجال عبيد بن شرية المتوفى سنة ٧٠ هجرية ، وقد اتخذه معاوية سميراً ومحدثا يروى له طرائف الأخبار وغرائب الأحاديث ، وقد دونت أحاديثه فى كتاب عنوانه «كتاب الملوك وأخبار الماضين» ، وكتابه أقرب إلى كتب المسامرات منه إلى كتب التاريخ ، وأمر هذا الكتاب لا يخلو من الشك ، بل قد تناول الشك وجود مؤلفه نفسه .

وواضح أن هذه الكتب التى تستبق الأولية فى كتابة التاريخ تغلب عليها صفة كتب السمر والأحاديث والنوادر ، وقد ظهرت بعدها كتب السير والمغازى ، وهى أقرب إلى كتب التاريخ الصحيح من الكتب السابقة ، لأنها كانت تعتمد على الأحاديث المروية عن النبى والتى يتحرى فى جمعها الصحة وتلتزم الدقة ، وكان لذلك فضل كبير فى رفع مستوى الكتابة التاريخية والاتجاه

بها إلى الطريق السوى ، وقد كان لهذا الاتصال بين رواية الأحاديث وكتابة التاريخ تأثير بالغ فى الطريقة التى سار عليها مؤرخو الإسلام فى كتابة التاريخ .

والمعروف أن أول من عرف بالتأليف فى المغازى هو أبان بن عثمان بن عفان الذى توفى سنة ١٠٥ أو قبلها[١] ، وكان أبان من علماء الحديث والفقه ، وقد اشترك فى خروج عائشة وطلحة والزبير للطلب بثأر عثمان ، وشهد واقعة الجمل ، وقد عينه عبد الملك بن مروان واليا على المدينة سنة ٧٥ هجرية ، وسبب ذلك أن الوالى السابق خرج وافداً على الخليفة بغير إذن منه قبل خروجه واستخلف أباناً على المدينة ، فغضب عليه عبد الملك ، وصرفه وأقر أباناً ، ، واستمر أبان فى ولايته على المدينة سبع سنوات ، وقد عزله عبد الملك سنة ٨٣ هجرية .

والمرجع الذى يعتمد عليه القائلون بأن أباناً هو أول من ألف فى المغازى هو رواية ابن سعد صاحب الطبقات فى حديثه عن المغيرة بن عبد الرحمن وهى قوله[٢]: «وكان ثقة قليل الحديث الا مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذها من أبان بن عثمان ، فكان كثيراً ما يقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها » والظاهر أن هذه المغازى التى رواها المغيرة عن أبان لم تكن كتاباً بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنما كانت مجموعة من الأخبار حول حياة النبى .

وممن عاصروا أباناً وألفوا فى التاريخ عروة بن الزبير ، وقد ولد سنة اثنتين وعشرين وقيل ست وعشرين للهجرة ، وكان عروة يعد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وأبوه الزبير بن العوام أحد الصحابة العشرة المقدمين ، وهو ابن صفية عمة النبى ، وأم عروة المذكور أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين ، وهو شقيق

---

(١) تختلف الروايات فى تاريخ وفاته ففى بعضها أنه توفى فى عهد الوليد الأول (٨٦/٩٦ هجرية) وفى رواية أخرى أنه مات فى عهد يزيد الثانى (١٠١ — ١٠٥ هجرية) ويذهب البعض الى أنها فى نهاية عهد يزيد الثانى أى سنة ١٠٥ هجرية .

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ١٥٦ .

عبد الله بن الزبير بخلاف أخيهما مصعب فإنه لم يكن من أمهما ، وقد روى عروة عن عائشة أم المؤمنين ، وكان عروة رجلا معروفاً بالصلاح والتقوى والعلم ، وقد مكنته إقامته فى المدينة من الإلمام بكثير من الأخبار عن أولية الاسلام ، وقد عرف بعضها من والده ومن أمه ، وعرف من عائشة أكثر من غيرها ، وكان لا يقطع زيارتها وسؤالها ، ولم يكتف عروة بتلقين تلاميذه الأخبار التى نقلها عن الثقات الذين أخذ عنهم بل دون ما انتهى إلى علمه عن حوادث صدر الإسلام فى رسائل اعتمد عليها ابن إسحاق والواقدى والطبرى ، وقد لوحظ أن عروة فى كتاباته لا يهمل الإسناد إهمالا تاماً ، ولا يعنى به كذلك عناية شديدة .

وقد أصابته الأكلة فى رجله وهو بالشام عند الوليد بن عبد الملك ، فقطعت رجله بالمنشار وهو شيخ كبير ، وقدأظهر جلداً عجيباً وقوة احتمال نادرة ،ولم يقبل أن يسقى الخمر ليستعين بها على احتمال الألم . وقد توفر عروة على دراسة الأثر والعناية بالأمور الدينية ، وابتعد عن السياسة والأمور الدنيوية ، ولهذا اتصل بالأمويين بالرغم مما كان بينهم وبين أخيه عبدالله من منافسة على الخلافة انتهت بقتل عبد الله وأخيه مصعب قبـــله ، وقد حاز عروة إعجاب عبد الملك ، وظفر بتقديره حتى قال فيه عبد الملك « من سره أن ينظر إلى رجـل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير »[1] . وقد توفى عروة سنة ٩٣ هجرية وقيل سنة ٩٤ .

ومن أشهر من عرف بكثرة المعلومات التاريخية وكان من السباقين إلى رواية أخبار السيرة والمغازى وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤ هجرية ، والمعروف عن وهب أنه كانت له معرفة واسعة بأخبار الأوائل وأحوال الأنبياء ، وقد ولد باليمن ونشأ بها ، وولى بها القضاء ، واتصف بالزهد والصـــلاح ، ويقول عنه ابن خلـكان إنه من الأبناء ومعنى ذلك أنه من سلالة رجال الجيش الفارسى الذى

---

(٢) وفيات الأعيان الجزء الثانى صفحة ٤٢١ تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد

جاء إلى اليمن لمساعدة سيف بن ذى يزن الحميرى على طرد الأحباش الذين استولوا على ملكه ، وقد أمده بهذا الجيش كسرى إنو شروان حينما ذهب إليه واستنجده على الأحباش ، وقد استوطن جند هذا الجيش اليمن وتأهلوا ورزقوا الأولاد ، وسلالتهم يدعون الأبناء ، ويقول عنه ياقوت إنه « كان من خيار التابعين ثقة صدوقا[1] » وكان وهب فيما يقال كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات ، وينسب إليه كتاب اسمه « الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم » وقد عرف وهب ما تحويه كتب المسيحيين واليهود المقدسة عن طريق صلاته باليمنيين من أهل الكتاب ، وكانوا كثيرين باليمن ، والظاهر أن زهده وصلاحه وعلمه لم تجنبه أذى الولاة ، فقد حبس وهو شيخ متقدم فى السن وضرب حتى أشفى على الموت لأسباب غير معروفة ، ووهب من الثقات الذين يعول عليهم فى قصص الأنبياء خاصة ، وقد تناول كذلك تاريخ الأولياء الذين لم يصلوا إلى مرتبة النبوة ، وقد عنى وهب بأخبار وطنه اليمن عناية خاصة ، وطريقته أقرب إلى القصص التاريخى منها إلى التاريخ الخالص ، ومما يروى من كلام وهب قوله « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والصبر جنوده والرفق أبوه واللين أخوه » وهو كلام يدل على أن الرجل قد استفاد على ما يظهر من دراسة التاريخ وكثرة التجارب وطول العمر .

واشتهر محمد بن مسلم الزهرى بسعة العلم ومعرفة الأنساب ، وساعده حبه لجمع الأخبار ذاكرة قوية . وكان معنياً بكتابة ما يسمع على غير ما كان مألوفاً بين معاصريه ، وقد ألف الزهرى إلى جانب المواد التى دونها لاستعماله الخاص كتاباً عن القبائل العربية بأمر من خالد القسرى ، ولكنه لم يتمه ، وقد كتب فى السيرة كذلك ، وكان كثير الاتصال بالخلفاء الأمويين ، وقد أخذ عليه ذلك ، وتوفى الزهرى سنة ١٢٤ هجرية ، وقد قدر علمه عمر بن عبد العزيز حتى كتب إلى الآفاق يقول « عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه »

وممن عرفوا برواية الأخبار أبان بن عثمان اللؤلؤى ويعرف بالأحمر البجلى

---

(١) معجم الأدباء جزء ١٩ صفحة ٢٥٩ .

وموطنه الأصلى الكوفة ، ولكنه كان يسكنها تارة والبصرة أخرى ، وقد أخذ عنه من أهل البصرة أبو عبيدة معمر بن المثنى ، ومحمد بن سلام الجمحى ، وقد أكثر الحكاية عنه فى أخبار الشعراء والنسب والأيام ، ولم يعرف من مصنفاته إلا كتاب جمع فيه المبدأ والمبعث والمغازى والوفاة والسقيفة والردة .

وأكثر ما كتبه المؤرخون المتقدمون قد فقد وضاع أو لحقه التحريف وأضيف إليه ما لم يكن به ، ولم يصل إلينا منها كاملا سوى سيرة عبد الملك ابن هشام المعروفة بسيرة ابن هشام . وهى مختصرة من سيرة ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ ، وقد بز ابن إسحاق جميع المؤرخين المتقدمين وأناف عليهم بغزارة معلوماته ، وسعة إحاطته ، وقدرته على تنسيق الأخبار التى جمعها ، وبراعته فى عرضها ، وكان جده يسار من سبى(١) عين التمر ، وهو أول سبى دخل المدينة من العراق وكان أبوه شغوفاً بجمع الأحاديث ، وكان ابنه يروى عنه الكثير من الأحاديث مما يوضح أنه شغل برواية الحديث منذ حداثته ، وزاد معلوماته بعد ذلك عن طريق اتصاله بكبار علماء عصره مثل عاصم بن عمر وعبد الله بن أبى بكر والزهرى ، ولم يكتف بذلك بل حاول أن يحصل على الأخبار من شتى المصادر ورحل إلى مصر ، وزار الإسكندرية ، وسمع من يزيد بن أبى حبيب ، وعاد إلى المدينة ، ولم تطب له الإقامة بها لوقوع خلاف بينه وبين اثنين من كبار علمائها ، وهما هشام بن عروة ومالك بن أنس ، أما هشام فقد غضب عليه لأنه بلغه أنه يروى عن فاطمة بنت المنذر بن الزبير امرأة هشام فقال « هو كان يدخل على امرأتى؟ » كأنه أنكر ذلك ، أما خصومة مالك بن أنس فسببها فيما يقال أن ابن إسحاق كان يتمسك بمذهب القدر . وبلغ مالكاً أن محمد بن إسحاق يقول « إعرضوا على علم مالك بن أنس فإنى أنا بيطاره » فقال مالك « أنظروا إلى دجالٍ من الدجاجلة يقول إعرضوا على علم مالك . »

---

(١) بلدة قريبة من الأنبار

وقد رحل ابن إسحاق من المدينة إلى الكوفة ، ولم تعرف عن ابن إسحاق صلات ببلاط دمشق على خلاف أستاذه الزهرى ، وربما كان لسقوط الدولة الاموية فى سنة ١٣٢ واستيلاء العباسيين على الخـلافة أثر فى تشجيعه على مغادرة المدينة والانتقال إلى العراق ، وقد زار الجزيرة والرى وبغداد ، وقصد الخليفة المنصور وهو فى الحيرة ، وتقول الرواية إنه دخل على المنصور وبين يديه ابنه المهدى فالتفت إليه المنصور وقال له .

« أتعرف هذا يابن إسحاق ؟ »

فقال « نعم ، هذا ابن أمير المؤمنين » .

فقال المنصور « إذهب فصنف له كتاباً منـذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا » .

فصنف ابن إسحاق كتابه ، ويروى أن المنصور قال له « لقد طولته يابن إسحاق ، إذهب فاختصره »

وحفظ المنصور الكتاب الكبير فى خزانته .

ومهما يكن نصيب هذه الرواية من الصحة فإن ابن إسحاق وضع كتابه على أساس الأحاديث التى جمعها وهو فى المدينة ، وبرغم اتصاله بالعباسيين قيل عنه إنه كان يتشيع ، وكان له انقطاع إلى عبد الله بن حسن بن حسن ، وكان يأتيه بالشىء فيقول له « إثبت هذا فى علمك » فيثبته ويرويه(١)

والآراء بوجه عام مختلفة فى علمه والثقة به ، فعاصم بن عمر يقول عنه « لا يزال فى الناس علم ماعاش محمد بن اسحاق » وقال ابن شهاب الزهرى « من أراد المغازى فعليه بابن إسحاق » ويقول عنه ابن خلكان « كان محمد ثبتاً فى الحديث عند أكثر

---

(١) الجزء الثامن عشر من معجم الأدباء صفحة ٧

العلماء وأما فى المغازى والسير فلا تجهل إمامته ، وقال سفيان بن عيينة « ما أدركت أحداً يتهم ابن إسحاق فى حديثه » وحكى عن ابن حنبل وغيره من العلماء الأعلام أنهم وثقوه واحتجوا بحديثه ، ولكن بعض أصحاب الحديث من ناحية أخرى يضعفونه ويتهمونه ، وقال عنه ابن سلام الجمحى « وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل منه كل غثاء محمد بن إسحاق وكان من علماء الناس بالسير فقبل عنه الناس الأشعار وكان يعتذر منها ويقول لا علم لى بالشعر إنما أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذر فكتب فى السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ ألوف من السنين ؟ » (١) ونقد ابن سلام له وجاهته ، ويذكر ابن هشام فى كتابه أن كثيراً من القصائد التى ذكرها ابن اسحق غير معروفة عند أهل العلم بالشعر ويندر أن يذكر ابن إسحق أسماء الذين أمدوه بهذه القصائد ، على أنه قد يخفف من وقع نقد ابن سلام أن القصائد التى ذكرها ابن إسحق لم تكن جميعها من زائف الشعر وسفسافه ، وأن جانباً منها من المقطوع بصحته وأن ابن إسحاق لم يعن بذكرها للاستشهاد على صحة الوقائع التى ذكرها وإنما أتى بها من قبيل التشويق والترغيب وتهيئة الجو المناسب لرواية القصة ، وكان إدخال القصائد والمقطوعات الشعرية فى الأخبار المروية من الأساليب الفنية المأثورة فى القصص عند العرب ، وفى أخبار أيام العرب والغزوات الاسلامية أمثلة كثيرة لذلك ، وقد سار أكثر مؤرخى الاسلام على هذا النهج فى مؤلفاتهم ، وقد حملت ابن إسحاق شدة تعلقه بهذه الطريقة على رواية بعض القصائد التى نظمها خصوم النبى ونهى النبى عن روايتها ، ومهما تختلف الآراء فى تقدير الأخبار التى جمعها ابن إسحاق فإن لكتابه مكانة كبيرة من الناحيتين التاريخية والأدبية لقدم عهده ، وغزارة مادته ، وصحة روايته إلى حد كبير .

---

(١) طبقات الشعراء ص ٧

اما ابن هشام الذى روى لنا سيرة محمد بن إسحاق فهو أبو محمد عبد الملك ابن هشام من المتقدمين فى علم النسب والنحو ، وقد عاش فى مصر وأصلة من البصرة ، وله كتاب فى أنساب حمير وملوكها وكتاب آخر فى شرح ماوقع فى أشعار السير من الغريب ، وقد توفى سنة ٢١٣ هجرية ، وفى رواية أخرى سنة ٢١٨ ، وقد جمع السيرة من المغازى والسير لابن إسحق وهذبها ولخصها ؛ وقد أشار فى صدر الكتاب إلى ما أجراه من حذف فقال(١) وأنا إن شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن ابراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ولده وأولادهم لأصلابهم الأول فالأول من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتارك بعض ماذكره ابن إسحاق فى هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن شىء وليس سبباً لشىء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر لنا البكائى بروايته ومستقص إن شاء الله تعالى ماسوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به » وقد قام ابن هشام ببعض التصحيحات ، وزود السيرة بإضافات كثيرة فى الأنساب واللغة ، وكان دائماً ينبه على ما يضيفه ، ويشير إلى مايحذفه ، دون أن يغير فى النص الأصلى ،ولا نزاع فى أن ابن هشام قد بذل جهداً مشكوراً فى هذا العمل ، ولكن قد يخطر لنا بعد ذلك كله أن نسأل هل كان من حق ابن هشام أن يتناول مؤلف غيره بالحذف والإضافة ! أما كان الاولى به أن يترك كتاب ابن إسحاق على حاله ويكتب سيرة مستقلة يرجع فيها إلى ابن إسحق وغيره من مؤرخى السيرة ؟ إننا هنا بإزاء مشكلة أدبية قد تختلف فيها الآراء وتتعارض الأحكام .

---

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٣

ومن أشهر نقلة الأخبار أبو مخنف ، واسمه لوط بن يحيى ، وكان جده من أصحاب علي ، وقد روى عن النبي ، وكان أبو مخنف راوية أخباريا صاحب تصانيف في الفتوح وحروب الإسلام ، وهو كوفي الأصل ، وكان يعد مرجعاً في أخبار العراق وفتوحها ، وأكثر كتبه تدور حول الحوادث التي وقعت في العراق ، وقد توفي سنة ١٥٧ ، وهو ممن اعتمد عليهم الطبري في تاريخه المشهور .

ومن نقلة الأخبار الذين اشتهروا قبل رواج الكتب عوانة بن الحكم ، وكان عالماً بالأخبار والآثار ثقة ، روى عنه الأصمعي والهيثم بن عدي وكثير من أعيان العلماء ، وهو رجل من أصل متواضع ، ويقال إن أباه كان عبداً خياطاً ، وكانت أمه أمة سوداء ، وقد عاب شيئًا من شعر ذي الرمة فهجاه بأبيات يقول منها :

ألكني(١) فإني مرسل برسالة إلى حكم من غير حب ولا قرب
فلو كنت من كلب صميما هجوتها ولكن لعمري لا إخالك من كلب
ولكنما أخبرت أنك ملصق كما ألصقت من غيره ثلمة القعب
تدهدى نخرت ثلمة من صحيحه فلز بأخرى بالغراء وبالشعب

وهو يعد من علماء الكوفة بالأخبار خاصة والفتوح مع علم بالشعر ، وعامة أخبار المدائني منقولة عنه ، وروى عنه أنه كان عثماني النزعة وكان يضع أخباراً لبني أمية ، وفي رواية أخرى أن ميوله كانت علوية ، وأنه لما بلغه خبر مقتل محمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بالمدينة ترحم عليه وذكر فضله وأثنى عليه ، وقيل عنه إنه أنشد بيتين من الشعر فسئل لمن هما ؟ فقال « أنا تركت الحديث بغضاضني للإسناد وليس أراكم تعفوني منه في الشعر » وكان عوانة ضريراً وقد توفي سنة ١٤٧ هجرية وقيل سنة ١٥٨ هجرية وهي السنة التي مات فيها المنصور .

---

(١) ألكني إلى فلان أي أبلغه عني والقعب القدح وتدهدى أي تدحرج وانقلب ولز بكذا أي ألصق به وأخبار عوانة في معجم الأدباء جزء ١٦ صفحة ١٣٤ .

ومن أوسع مؤلفي القرن الثاني الهجري علماً وأكثرهم مؤلفات فى التاريخ والسير والأخبار على بن محمد المدائنى ، وقد ولد فى البصرة سنة ١٣٥ هجرية وسكن المدائن ثم انتقل عنها إلى بغداد فلم يزل بها إلى حين وفاته فى سنة ٢٢٥ هجرية واتصل فيها بإسحاق بن إبراهيم الموصلى ، وقد أسبغ عليه إسحاق عطفه وشمله برعايته ، وكان حجة فى أخباره وثقة فى روايته ، وقد مثل مرة بين يدى المأمون وتناول الحديث ذكر على بن أبي طالب ، فحدثه المدائنى بأحاديث عنه إلى أن ذكر المأمون لعن بنى أمية له ، فروى له المدائنى عن أبى سلمة المثنى أن رجلا أخبره بالخبر الآتى قائلا « كنت بالشام فجعلت لا أسمع أحداً يسمى علياً ولا حسنا ولا حسيناً ، وإنما أسمع معاوية ويزيد والوليد ، فمررت برجل جالس على باب داره وقد عطشت فاستسقيته ، فقال « ياحسن إسقه » فقلت له « أسميت حسناً ؟ »

فقال « أي والله ، إن لي أولادا أسماؤهم حسن وحسين وجعفر » فإن أهل الشام يسمون أولادهم بأسماء خلفاء الله ، ولا يزال أحدنا يلعن ولده ويشتمه وإنما سميت أولادى بأسماء أعداء الله ، فإذا لعنت إنما ألعن أعداء الله » فقلت له « ظننتك خير أهل الشام وإذا جهنم ليس فيها شر منك » فقال المأمون

« لا جرم قد ابتعث الله عليهم من يلعن أحياءهم وأمواتهم ويلعن من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء » وقد ذكر ياقوت من مؤلفات المدائنى عدداً كبيراً من الكتب تكاد تكون أقرب إلى فصول قائمة بذاتها منها إلى أن تكون كتبا شاملة مبوبة . فمنها كتاب عن أمهات النبي وآخر عن صفته وكتاب عن أخبار المنافقين وكتاب عن عهود النبي ، ومنها كتاب عن أخبار قريش ومجموعة أخرى من الكتب فى أخبار الخلفاء ، وكتب أخرى فى الأحداث منها كتاب الردة وكتاب الجمل ، وسلسلة أخرى من الكتب عن الفتوح منها كتاب فتوح الشام وكتاب فتوح العراق ، ومنها كتب فى أخبار العرب وكتب أخري فى أخبار الشعراء ، وواضح أن جهده الأدبى كان ضخماً هائلا وأن اطلاعه كان واسعاً شاملا ، وقد انتفع بما كتبه المدائنى المؤلفون الذين جاءوا بعده فأكثروا من

النقل عنه ، وقد اعتمد عليه ابن عبد ربه فى كتاب العقد ، ويقال إنه نقل كثيراً عن عوانة الأخبارى .

ويشبه المدائنى فى مادته وطريقته وتناوله للموضوعات هشام بن محمد بن السائب الكلبى . وقد نشأ هشام فى الكوفة ، وكان نسابة عالما بأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها ، ومؤلفاته كثيرة ، بعضها فيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية ، وبعضها فى أخبار الإسلام وأخبار البلدان وأخبار الشعراء وأيام العرب ، وقد ضاعت أكثر كتبه ولم يبق إلا الروايات المنقولة عنها : وهو مؤلف كتاب الأصنام ، وهو كتاب صغير الحجم ، والأرجح أن أغلب كتبه كانت من هذا الحجم الصغير ، وقد ألف هشام للمأمون كتاب « الأنساب » وصنف لجعفر البرمكى كتاب « الملوكى » فى النسب ، وكان جعفر يعطف عليه ويصطنعه ، وقد توفى هشام سنة ٢٠٦ هجرية .

والمؤرخ الذى حاز شهرة واسعة فى القرن الثانى الهجرى هو الواقدى ، واسمه محمد بن عمر . وكان عالماً بالحديث والمغازى والفتوح ، وقد قربه المأمون وولاه القضاء بشرقى بغداد ، وقد عرف الواقدى بغزارة العلم ، وكان ثقة فى أخبار الناس والسير والفقه وسائر الفنون ، وكان المأمون يقدره تقديراً عالياً ويبالغ فى رعايته ، كتب إليه مرة يشكو ضائقة لحقته وركبه بسببها دين ، وعين مقداره فى قصته ، فوقع المأمون فيها بخطه « فيك خلتان سخاء وحياء ، فالسخاء أطلق يديك بتبذير ما ملكت ، والحياء حملك أن ذكرت لنا بعض دينك ، وقد أمرنا لك بضعف ما سألت ، وإن كنا قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك ، وإن كنا بلغنا بغيتك فزد فى بسطة يدك ، فإن خزائن الله مفتوحة ، ويده بالخير مبسوطة ، وأنت حدثتنى حين كنت على قضاء الرشيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للزبير « يازبير إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، ينزل الله سبحانه للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن كثر كثر له ، ومن قلل قلل عليه » وقال الواقدى « كنت نسيت الحديث فكانت مذاكرة المأمون إياى أعجب إلى من صلته » ،

وقد ذكر عنه ياقوت وابن خلكان أخباراً تدل على نبل أخلاقه وسماحة نفسه ووفائه لأصدقائه . ومؤلفاته كثيرة منها كتاب المغازى وكتاب أخبار مكة وكتاب السيرة وكتاب فتوح الشام ، ويمكن أن يستدل من عناوين كتبه على عظيم قيمتها لو كانت حفظت لنا ، وبالرغم من أن طائفة من المحدثين ضعفوه فإنه فى أخبار الناس والسير والفقه وسائر الفنون ثقة بالإجماع ، وقد ولد سنة ١٣٠ هجرية وتوفى سنة ٢٠٧ .

ومن مؤرخى القرن الثانى الهجرى البارزين الهيثم بن عدى ، وكانت ولادته قبل سنة ١٣٠ هجرية وتوفى سنة ٢٠٧ هجرية وقيل سنة ٢٠٩ ، وكان واسع الاطلاع على كلام العرب وعلومها وأشعارها ولغاتها الكثيرة ، ووعاء من أوعية العلم ، وأصل أسرته من منبج ولكنه ولد بالكوفة ، وقد اشتهر بالرواية، ونقل من أخبار العرب وأشعارها ولغاتها شيئاً كثيراً ، ولكنه لم يكن ثقة فى الحديث ، وإنما هو صاحب أخبار ، وكانت جاريته تقول عنه « كان مولاى يقوم عامة الليل يصلى فإذا أصبح جلس يكذب(١) » وقد أذاع عنه بعض خصومه أنه ذكر العباس بن عبد المطلب بشىء فحبس لذلك ، وقد حضر مجلسه مرة الشاعر أبو نواس فى حداثته ، والهيثم لايعرفه ، فلم يستدنه ولا قربه ، فقام أبو نواس مغضباً ، فسأل الهيثم عنه فعرفوه به فقال « إنا لله ! هذه والله بلية لم أجنها على نفسى فقوموا بنا إليه لنعتذر » فساروا إليه ، ودق الهيثم عليه الباب وتسمى له ، فقال « أدخل » فدخل فإذا هو قاعد يصفى نبيذاً له وقد أصلح بيته بما يصلح به مثله ، فقال الهيثم « المعذرة إلى الله تعالى ثم إليك ، فما عرفتك وما الذنب إلا لك حيث لم تعرفنا نفسك ، فنقضى حقك ، ونبلغ الواجب من برك » فأظهر له أبو نواس قبول المعذرة ، فقال الهيثم « أستعهدك من قول سبق منك فى » فقال « ما قد مضى فلا حيلة فيه ، ولك الأمان مما أستأنف » .

---

(١) معجم الأدباء الجزء التاسع عشر صفحة ٣٠٤ .

فقال الهيثم « ماالذى مضى جعلت فداك ؟ »

فقال أبو نواس « بيت مر وأنا فيما رأيت من الغضب » .

قال الهيثم « أنشدنيه » .

فتمنع أبو نواس ودافعه ، وألح عليه الهيثم فأنشده .

ياهيثم بن عدى لست للعــرب
ولست من طيء إلا على شغب
إذا نسبت عديا فى بنى ثعــل
فقدم الدال قبل العين فى النسب

وقام الهيثم من عنده ، ثم بلغه بعد ذلك بقية الأبيات وقد ختمها أبو نواس بقوله :

لله أنت فما قربى تهم بهـا إلا اجتلبت لها الأنساب من كثب

فعاد الهيثم إليه ، وقال له « ياسبحان الله قد أمنتنى وجعلت لى عهــداً ألا تهجونى » فقال أبو نواس « إنهم يقولون مالا يفعلون » .

والظاهر أن حب الاستطلاع ، والرغبة فى جمع الأخبار ، والحرص على الاحاطة بكل شاردة وواردة منها كانت تصل بالهيثم إلى حد التجسس على أحوال معاصريه ومحاولة معرفة أسرار حياتهم الخاصة ، وعيوبهم الخفية ، وكان الهيثم يروى تلك الأخبار على وجوهها ، ويشيع ما كتموا ، فكرهه الناس من أجل ذلك ، ووشوا به إلى الولاة ، وأغروا به الشعراء فأوسعوه هجواً ، وقد بلغ الحقد عليه وكراهته من المدعو أبى يعقوب الخريمى إلى حد أنه ذهب إلى شاعر يسمى على بن جبلة المعروف بالعكوك يسأله هجاء الهيثم ، وقد دارت بينهما هذه المحادثة :

الخريمى : إن لى إليك حاجة ! » .

العكوك : « ماهى ؟ » .

الخريمى : تهجو لى الهيثم بن عدى ! »

العكوك : « ومالك أنت لاتهجوه وأنت شاعر ؟ ».

الخريمى : « قد فعلت فما جاءنى شىء كما أريد ! » .

العكوك : « ولكن كيف أهجو رجلا لم يتقدم إلى منه إساءة ولا له جرم يحفظنى ؟ » .

الخريمى : « تقرضنى فإنى ملىء بالوفاء والقضاء » .

العكوك : « نعم فأمهلنى اليوم » .

ولما غدا الخريمى على العكوك يستنجزه وعده أسمعه أبياتا فى هجاء الهيثم يقول منها :

للهيثم بن عدى نسبة جمعت ... آباءه فأراحتنا من العدد

أعدد عديا فلو مد البقاء له ... ماعمر الناس لم ينقص ولم يزد

والرجل الذى يتقارض الشعراء هجاءه يغلب على الظن أنه كان فى طباعه ما يثير الكراهية ، ويحمل على الضغينة ، ويقال عن الهيثم إنه كان يرى رأى الخوارج[1] ، وقد اختص بمجالسة المنصور والمهدى والهادى والرشيد وروى عنهم ، ومن كتبه كتاب المثالب وكتاب المعمرين وكتاب بيوتات العرب وكتاب أخبار الفرس ، وثبت كتبه حافل يشمل كتبا عن الحكام والقضاة والخلفاء وحوادث الإسلام المبكرة وأخبار العرب فى الجاهلية .

---

(١) وفيات الأعيان الجزء الخامس صفحة ١٥٧

وكثير من الروايات التى جمعها هؤلاء المؤرخون الأخباريون المتقدمون محفوظة فى مؤلفات المؤرخين الذين جاءوا بعدهم ، فقد فقدت معظم مؤلفاتهم ، وبالرغم من ضياع مؤلفات هؤلاء الأخباريين فإن جهدهم لم يذهب عبثا ، وقد أدى أمثال المدائنى والهيثم وهشام وأبى مخنف وابن إسحاق وسائر مؤرخى الطليعة خدمة كبيرة للأدب العربى والتاريخ الإسلامى بما جمعوا من أخبار الحوادث الهامة والروايات الطريفة ، ومهدوا السبيل لظهور كبار المؤرخين الإسلاميين أمثال الطبرى واليعقوبى والمسعودى وغيرهم من المؤرخين البارزين الذين أفادوا من المادة الضخمة الدسمة التى جمعها هؤلاء الرواد ، والتراث القيم الذى خلفوه ، بعد أن أمضوا فى جمعه بياض نهارهم وسواد ليلهم وزهرة عمرهم .

نشأة التاريخ الإسلامى والطبرى

ظهر الإسلام فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى ، وجمع أشتات القبائل العربية المتناثرة فى شبه الجزيرة العربية ، وانتشر الإسلام بسرعة غير مسبوقة فى التاريخ ، وتهدلت ظلاله الوارفة على بلاد الشام وإيران ومصر والسند وشمال إفريقية والأندلس ، وأثار العقول فى كل ناحية حل بها ، واستنهض العزائم واستجاش الهمم . والأعمال الجليلة والمساعى الباهرة والمواقف الرائعة تستوجب الإعجاب والتقدير من ناحية ، وتبتعث حب المفاخرة بها والرغبة فى تخليدها من ناحية أخرى ، ويمهد هـذا وذاك السبيل ويفسح المجال لظهور الرجال الذين ينقطعون لجمع أخبارها ، واستقصاء أحداثها ، ووصف أحوالها وملابساتها ، ومن هؤلاء الرجال الرواة والأخباريون والقاصون والمؤرخون والشعراء ، ولذا نلاحظ أنه لما هدأت فورة الغزوات الإسلامية الظافرة ، وتوقفت حركة الفتوح المتوالية ، كثر القاصون والرواة والأخباريون والمؤرخون الذين يفصلون أخبارها ، ويتحدثون عن وقائعها ومشاهدها ، ويصفون أبطالها وقادتها .

وقد كانت الأمية غالبة على العرب فى جاهليتهم ، ولذلك كانت معلوماتهم التاريخية قليلة محدودة بالرغم مما عرف عنهم من قوة الذاكرة وصفاء الخاطر والتماع الذكاء ، وكانت هـذه المعلومات تكاد تقتصر على معرفة سلاسل أنسابهم التى يؤكدون بها عراقة أصولهم وإلمامهم بما يسمى « أيام العرب » . وهى أخبار الحروب الداخلية التى نشبت بين القبائل المختلفة مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء وما إلى ذلك من الوقائع المحلية ، يضاف إلى ذلك أخبار القبائل البائدة التى كانوا يتناقلونها وبعض ما انتهى إليهم من حوادث التوراة والتلمود عن أخبار اليهود أو قسس النصارى ، ولمم من الأخبار المتفرقة عن الأمم التى جاورتهم واحتكت بهم .

ولم يكن عندهم بطبيعة الحال مؤلفات تاريخية ، ولا مدونات للحوادث والكوائن ، ويمكن أن نستثنى من ذلك العرب الذين استطاعوا أن يأخذوا فى جاهليتهم بنصيب من الاستقرار والحضارة ، مثل عرب اليمن وعرب الحيرة ، فقد ترك أهل اليمن طرفا من أخبار ملوكهم وأحوالهم العامة منقوشة بالخط المسند على قصورهم ومبانيهم فى مختلف محافدهم ، وخلف أهل الحيرة أخبارهم وأنسابهم ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم وما إلى ذلك من أمورهم فى مدونات استودعوها بيع الحيرة .

ولما كان النبى العربى هو باعث النهضة ومحركها الأول فمن الطبيعى والمعقول أن تصبح سيرته أول موضوع للتاريخ الإسلامى ، وأن يتبع ذلك فى الأهمية تاريخ صحابته الأوفياء الذين حاربوا تحت ألويته ، واستشهدوا فى سبيل دعوته ، وأبلوا بلاء حسناً فى توطيدها ، وأزالوا العقبات فى طريق نشرها وإذاعتها وتغليبها .

وتدل أكثر القرائن على أن التاريخ الاسلامى نشأ نشأة مستقلة غير متأثرة بما كتبه أعلام المؤرخين اليونانيين أو الرومانيين ، فلم يعرف العرب أمثال هيرودوت وتوكوتيدس وزينوفون عند اليونان ، أو تيتوس ليفيوس وتاسيتوس عند الرومان ، وكانت نشأته استجابة لمطالب العالم الإسلامى وحاجاته وتطوراته

ومن المزايا التى اشتهر بها مؤرخو الإسلام مراعاة الدقة فى تسجيل الحوادث وتأريخها بالسنة والشهر واليوم ، وينقل مرجليوث فى كتابه عن مؤرخى العرب عن المؤرخ الإنجليزى المشهور بكل قوله « إن التوقيت على هذا النحو لم يعرف فى أوربا قبل عام ١٥٩٧ ميلادية » وقد ابتدأ التـــاريخ بالهجرة فى عهد عمر ابن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين .

والخصلة الثانية التى امتاز بها التاريخ الاسلامى هى الإسناد ، وهو إرجاع الرواية التاريخية إلى شخص شاهد عيان ، وفى سبيل تحرى صحة الأحاديث المنسوبة إلى النبى نشأ نوع من التحقيق يقوم على فحص سلسلة الإسناد ، ويتتبع كيف وصل الحديث إلى كل جيل من الأجيال المتوالية ، وكان دارسو الحديث فى بادىء

الأمر هم المؤرخين ، ولكن التاريخ استقل بالتدريج عن علم الحديث ، وصار الأخبارى شخصاً آخر غير المحدث ، ولكنه أقل منه فى المنزلة والتقدير .

ولم تقو حركة كتابة التاريخ الإسلامى وتنشط إلا فى أواخر عهد الدولة الأموية ، ولعل السبب فى هذا التأخير هو قوة ذاكرة العرب واعتمادهم الشديد على هذه الذاكرة الواعية القوية ، يضاف إلى ذلك اعتبار آخر أشار إليه مرجليوث وربما كانت له أهميته ، وذلك أن الحرص على معرفة السنة كان من شأنه أن يعلى مكانة الحفاظ ، ويجعل الحاجة إليهم ماسة ، ووظيفة الحافظ هى أن يكون عنده معرفة دقيقة شاملة واسعة للحوادث التى يرويها ، وهذه المكانة التى بلغها الحافظ كان مما يضعفها من غير شك إمكان الحصول على هذه المعرفة بتفصيلاتها من الكتب ، وقد تعب الحفاظ فى تحصيلها والتثبت من صحتها ، وكان يهم هؤلاء الحفاظ أن يظلوا مرجعاً للتحصيل وأوعية للعلم ، على أن المادة التى بدأت تكتب فى عهد العباسيين لم تؤثر فى مكانة الحفاظ ، وأكثر مؤلفى الكتب أنفسهم كانوا من هذه الطبقة ، وأرجح أن سبب اضطرارهم إلى الكتابة والتدوين على نطاق واسع هو تكاثر المعلومات التاريخية إلى حد جعل الذاكرات حتى القوية منها تنوء تحت أعبائها ، وقد أوجد الحفاظ حلا وسطاً ، وهو طريقة الإجازة ، وهى أن يقرأ القارىء الكتاب ويدرسه على المؤلف نفسه أو من تكون له الأهلية والاستعداد لذلك .

وفى عصر الطبرى كان الناس يسمعون منه التاريخ والتفسير ، وكان العلم المستمد من الكتب وحدها ينتقص ، ويطعن فى قيمته ، ويفضل عليه العلم المنقول بالسماع ، فهناك إذاً أسباب أبطأت بحركة الكتابة والتدوين أبرزها أن وظيفة الحافظ جعلت الكتب لا لزوم لها ، ثم الاعتقاد بأن الكتب المكتوبة قد تكون وثائق لا يعتمد عليها ولا يوثق بها لأنها قابلة للتزوير والتزييف .

وقد تغير هذا النوع من التفكير مع الزمن . وقد استلزم تفسير القرآن ضروباً من المعارف ربما كان فى طبيعتها المعرفة التاريخية . فالقرآن يشير إلى بعض

الحوادث المعاصرة لنزوله ، ومن ثم نشأت الحاجة إلى معرفة مناسبات النزول ، والنصوص القرآنية تتناول الحوادث فى صورة تلميحية ، وتكتفى بالإيجاز عن الإطناب والتفصيل لتستخرج العبرة أو تستنبط الحكم والقاعدة ، والذين نزلت فيهم الآيات كانوا يعرفون تفصيلات الظروف الموجبة للنزول ، ويعرفون مناسباته وملابساته ، ولكن الجيل التالى كان مضطراً إلى معرفة تلك التفصيلات ، ومن ثم احتاج المفسرون إلى التاريخ وإلى دراسة الظروف التى ولد فيها الإسلام ليقرأوا القرآن عن فهم وبصيرة .

وفى القرآن كذلك إشارات تاريخية ولمحات عن الأمم السالفة ومواقف الأنبياء المتقدمين . والذى يريد أن يتفقه فى الدين ويستمكن من العلم يحرص على الرجوع إلى كتب المسيحيين واليهود لتزداد معلوماته ، وتتسع آفاق معرفته ، ولم يكن الرجوع إلى تلك الكتب فيما أعلم محرما أو ممنوعاً ، ولكنه لم يكن فى الوقت نفسه مما يشجع عليه ، ومن ناحية أخرى كان اليهود أو المسيحيون الذين دخلوا فى الدين الإسلامى يميلون إلى الانتفاع بما فى ذاكرتهم عن الحوادث التى أشار إليها القرآن إشارات سريعة خاطفة لينفذ إلى الجوهر واللباب ، وقد اقتضى ذلك التوسع فى معرفة التاريخ ، والاستكثار من أخبار الأنبياء المتقدمين ،والأمم الوارد ذكرها فى القرآن .

ومن أسباب التوسع فى التاريخ كذلك رغبة بعض الخلفاء فى استماع أخبار الملوك السابقين لينتفعوا بتجاربهم ، ويتعرفوا سياستهم ، ذكر المسعودى أن معاوية كان يستمع كل ليلة إلى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة . فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، وكذلك كان المنصور يحرص على معرفة التاريخ للاستفادة من تجارب الماضين واستخلاص العبرة من سياستهم ، ذكر عنه فى الجزء الثانى من كتاب الامامة والسياسة(١)

---

(١) وهذه الرواية نفسها موجودة فى الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين للجاحظ

أنه حينما هم بقتل أبي مسلم استدعى إسحاق بن مسلم العقيلي وقال له « حدثني عن الملك الذي كنت حدثتني عنه بحران » فقال له « نعم ، أكرمك الله ، أخبرني أبي عن حصين بن المنذر أن ملكا من ملوك الفرس يقال له سابور الأكبر كان له وزير ناصح قد أخذ أدبا من آداب الملوك وشاب ذلك بفهم في الدين » وقص عليه الحديث ، وخلاصته أن سابور أنفذ وزيره إلى خراسان يدعو أهلها إلى طاعته وكانوا قد خرجوا عليه ، وثاروا به ، فمضى الوزير وسعى في تحبيب الناس له ودعاهم إلى طاعة نفسه ، ولما استفحل أمره صمم سابور على قتله عند رجوعه إليه بأعيان خراسان ، فلما حضروا بغتهم فلم ينتبهوا إلا ورأس الوزير بين أيديهم . فاضطروا إلى طاعة سابور ، فلما سمع المنصور هذه القصة بما فيها من المشابهة بين سلوك الوزير وسلوك أبي مسلم أطرق ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول .

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلما

وكان تقدير عطاء الجند يقتضي معرفة الأنساب ، وكذلك رغبة الدولة في معرفة البلاد التي فتحت صلحاً أو التي اقتحمت عنوة أو بعهد ، فقد كان لكل حالة من هذه الحالات حكم خاص بها من ناحية فرض الجزية وتقدير الخراج ، وبدون تدوين التاريخ كانت المحافظة على هذه الحقوق تكاد تكون غير ميسورة ، وبغير المعرفة التاريخية لا يمكن التثبت من صحة المعاهدات .

وفي عهد عبد الملك بن مروان أصبحت الدواوين عربية ، وقد شجع نقل كتابة الدواوين إلى العربية على نشأة الكتابة التاريخية وانتشارها ، وأوجد وظيفة « الكاتب » الذي أصبحت معلوماته بحكم مزاولة عمله واسعة مستفيضة ، ومهد ذلك السبيل لظهور أساليب النثر العربي ، وقد أصبح الكاتب في العصور المتأخرة هو المؤرخ ، لا لأنه أعلم ببواطن الأمور وخفايا السياسات ، وإنما لأنه قد تدرب على معالجة الكتابة في الموضوعات المختلفة .

وأطلق اسم « القصاص » على الأشخاص الذين كانو يعنون بجمع الأخبار الشائقة التي تثير حب الاستطلاع ، وكانوا يسمونهم كذلك الرواة والأخباريين ،

وكانوا يعقدون حلقات فى المساجد ويتحلق حولهم الناس ، وكان كثير من هذه الأخبار يدور حول شخصية النبى وأبطال الإسلام ، أو عن الأنبياء الوارد ذكرهم فى القرآن ، وبعض هؤلاء الرواة المتقدمين قد اتهم بالكذب والتلفيق والانتحال والاختراع ، وقد اتهم عوانه الأخبارى بأنه كان يضع الأخبار لبنى أمية ، كما روى عنه ضيقه بالإسناد ، وقد أشرت إلى ذلك عند تحدثى عنه فى الفصل السابق .

وحاجة النظام القضائى جعلت معرفة التاريخ ضرورة لازمة ، وذلك لأن نشوء السنة كان يستدعى معرفة الأعمال الداعية إلى ذلك ، وقد كانت دراسة الأحاديث مما ساعد على نشوء فن التراجم وعلم الجغرافيا ، وذلك لأن طريقة اختبار صحة الأحاديث كانت تدعو إلى معرفة حياة رواة الحديث وأخلاقهم وسجاياهم وعقليتهم وسلامة تمييزهم والبيئة التى عاشوا فيها وتلقوا العلم بها .

ومن أشهر وأسبق من صنف فى المغازى والسير وهب بن منبه وعروة ابن الزبير ومحمد بن مسلم الزهرى ، ومهما يكن من الأمر فإن أكثر ما صنف مؤرخو الطليعة قد فقد ، وأقدم ما وصل إلينا هو سيرة النبى لابن هشام المنقولة بعد الحذف والإضافة من سيرة ابن إسحاق .

واشتغال المسلمين فى ضرب الخراج اضطرهم إلى تدوين أخبار فتوح البلدان مثل كتاب فتح مصر والمغرب لابن عبد الحكيم المتوفى سنة ٢٥٧ هجرية وفتح بيت المقدس وما إلى ذلك ، ومن أشهر كتب فتوح البلدان كتاب البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هجرية .

وأقدم كتب الطبقات التى وصلت إلينا كتاب « الطبقات الكبرى » أو طبقات الصحابة والتابعين لمحمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدى والمتوفى سنة ٢٣٠ هجرية . وهو يحتوى على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء إلى وقته ، وقد ألفت كتب على نمطه فى طبقات الشعراء وطبقات الأدباء وطبقات النحاة وطبقات اللغويين والمتكلمين والنسابين والأطباء حتى الندماء والمغنين وغيرهم مما جعل كتب التراجم موفورة فى الأدب العربى .

ونرى من ذلك أن كتابة التاريخ نشطت وازدهرت وتنوعت فى خلال القرن الثانى الهجرى ، ومن أشهر مؤرخى هذه الفترة محمد بن إسحاق والواقدى والهيثم ابن عدى وهشام بن محمد السائب الكلبى وعلى بن محمد المدائنى ، وقد مهد هؤلاء المؤرخون بما جمعوه من مادة السبيل لظهور المؤرخ المحدث الكبير محمد بن جرير الطبرى وأضرابه من كبار المؤرخين الذين عاصروه أو جاءوا بعده .

الطـــبرى أو المؤرخ المحدث

كان القرن الثالث الهجرى من القرون الخصبة الحفل فى تاريخ الإسلام ، فقد نبغ فيه كثيرون من الشعراء والكتاب والمؤرخين واللغويين والنحاة والمحدثين والفقهاء ، وأينما أدرنا الطرف فى ذلك القرن السرى نجد مؤلفات هامة وكتبا قيمة أصبحت فى القرون التالية مراجع للبحث وأمهات فى فروع المعرفة المختلفة ، وقد عاش فى هذا القرن من الشعراء أمثال البحترى وابن الرومى وابن المعتز ، ومن الكتاب أمثال الجاحظ وابن قتيبة الدينورى ، ومن النحاة أمثال المازنى والزجاج وثعلب ، ومن اللغويين أمثال أبى حاتم السجستانى والمبرد ، ومن المؤرخين أمثال البلاذرى وابن طيفور واليعقوبى وأبى حنيفة الدينورى ، ومن أبرز رجال هذا القرن رجلان ممتازان شامخان وهما البخارى صاحب « جامع الصحيح » المشهور بصحيح البخارى والطبرى صاحب التفسير الكبير وكتاب تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبرى ، وكانا كلاهما من كبار المحدثين .

وقد كان التاريخ فى نشأته عند العرب لوناً من ألوان رواية الحديث ، ولما اتسع نطـــاقه ، وتكاثرت مادته ، وتعددت فروعه ، استدعى الأمر وجود نوع من التخصص ، فاقتصر بعض المؤرخين على رواية الحديث ، وتجرد فريق آخر منهم لجمع الأخبار ومعرفة الحوادث السالفة ، وصار يطلق على المتخصصين فى ذلك لفظة الأخباريين ، وكان الواقدى وابن إسحاق من الذين انتقلو من الحديث إلى الأخبار ، وفى ابن جرير الطبرى عاد التياران إلى الالتقاء ، فالطبرى محدث كبير وأخبارى من الطراز الأول ، وتوفر هاتين الخصلتين فى الطبرى من الأسباب التى ساعدت على رفع مستوى المؤرخين عند العرب ، وأعادت إلى التاريخ اعتباره ، وجعلت جهابذة العلماء وكبار الفقهاء لا يتحرجون من دراسة التاريخ ، والتوفر على التأليف فيه ، والانقطاع له .

وقد ولد الطبرى سنة أربع أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين . وكان مولده بآمل ، وهى قصبة طبرستان ، وقد روى لنا الطبرى نفسه سبب تسمية البلاد التى نشأ بها « طبرستان » فقال « جئت إلى أبى حاتم السجستانى وكان عنده حديث عن الأصمعى عن أبى زائدة الشعبى فى القياس ، فسألته عنه ، فحدثنى به ، وقال لى أبو حاتم « من أى بلد أنت ؟ » فقلت « من طبرستان » فقال « ولم سميت طبرستان ؟ » فقلت « لا أدرى » فقال « لما افتتحت وابتدىء ببنائها كانت أرضاً ذات شجر ، فالتمسوا ما يقطعون به الشجر ، فجاءوهم بهذا الطبر الذى يقطع به الشجر فسمى الموضع به[1] »

وقد ظهرت قوة حافظته وشدة إقباله على طلب العلم من بواكير صباه ، قال عن نفسه فى خلال حديثه مع أحد أصحابه « حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين ورأى لى أبى فى النوم أننى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معى مخلاة مملوءة حجارة وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر « إنه إن كبر نصح فى دينه وذب عن شريعته » فحرص أبى على معونتى على طلب العلم ، وأنا حينئذ صبى صغير » . .

ولمح أبوه فيه ذكاء الفطنة ، وتوقد الخاطر ، والإخلاص فى طلب العلم والجد فى تحصيله ، فبذل جهده ليهيىء له أسباب ذلك .

وكتب الطبرى الحديث ببلده ، ثم بالرى وما جاورها من البلاد ، وكان العالم الإسلامى حينذاك على اتساع رقعته وترامى حدوده متصل الأسباب ، وكان التنقل فى طلب العلم سهلا ميسوراً ، فقصد الطبرى مدينة السلام ، وهى حينذاك مثابة العلم ، والمنهل العذب للواردين ، وأقام بها حيناً من الزمن يكتب عن شيوخها

---

(١) وفى كتاب « المعرب » للجواليقى صفحة ٢٢٨ أن معنى « التبر » بالفارسية الفأس ، وكذلك طبرستان كان الشجر حول مدينتها أشباً ، فلم يوصل إليها حتى قطع الشجر بالفئوس

ويحضر مجالسهم ، ويستمع إلى مناقشاتهم وأحاديثهم ومساجلاتهم ، ثم انحدر إلى البصرة فسمع من كان بقى من شيوخها فى وقته ، ثم صار إلى الكوفة ليستوفى سماع الأحاديث عن علمائها ، ثم عاد إلى مدينة السلام ، ولزم المقام بها مدة ، وتفقه بها وأخذ فى علوم القرآن . ثم غرب فخرج إلى مصر ، وكتب فى طريقه عن المشايخ بأجناد الشام والسواحل والثغور وأكثر منها ، ثم صار إلى الفسطاط فى سنة ٢٥٣ وكان بها بقية من الشيوخ وأهل العلم ، فأكثر عنهم الكتابة ، ثم صار إلى الشام ثم رجع إلى مصر ، وظهرت حينذاك قدرته فى دراسة القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر ، وقد روى عن نفسه فى هذه الفترة قال « لما دخلت مصر لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقينى وامتحننى فى العلم الذى يتحقق به ، فجاءنى يوما رجل فسألنى عن شىء من العروض ولم أكن نشطت له قبل ذلك ، فقلت له « علىّ قول ألا أتكلم اليوم فى شىء من العروض ، فإذا كان فى غد فصر إلىّ ، وطلبت من صديق لى العروض للخليل بن أحمد ، فجاء به ، فنظرت فيه ليلتى فامسيت غير عروضى وأصبحت عروضيا » وقد حاول الطبرى أن يلم بأطراف المعرفة جميعها فى عصره ، ويستوعبها استيعاباً ، ويسر له ذلك قوة ذاكرته ، وجودة فهمه ومثابرته ، وانصرافه التام للتحصيل ، وزهده فى المطالب الدنيوية .

وعاد من مصر إلى مدينة السلام ، وهو يتابع الكتابة عن العلماء ، ويحضر دروسهم ، وزار بلده ، ثم استقر به المقام فى بغداد ، واشتهر اسمه فيها ، وشاع خبره بالفهم والتقدم .

وكان الطبرى على ما يظهر حراً فى تفكيره ، صريحاً فى إبداء رأيه ، وكان للحنابلة فى بغداد قوة وسطوة ونفوذ وكثرة عددية ، واتفق أن الطبرى ألف كتابا ذكر فيه اختلاف الفقهاء ، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فسئل عن سبب ذلك ، فقال « لأنه لم يكن فقيها وإنما كان محدثا » فكبر ذلك على الحنابلة فشغبوا عليه ، ورموه بمحابرهم ، فقام ودخل داره ، فرموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كالتل العظيم ، وركب صاحب الشرطة مع الجند ليمنع عنه العامة ، ووقف على بابه يوما إلى الليل وأمر برفع الحجارة عنه .

وذكر ياقوت(١) أن الطبرى خلا بعد ذلك فى داره ، وعمل كتابه المشهور فى الاعتذار إليهم ، وذكر مذهبه واعتقاده ، وجرح من ظن فيه غير ذلك ، وفضل أحمد بن حنبل ، وذكر مذهبه ، وتصويب اعتقاده ، ولم يزل فى ذكره إلى أن مات .

وقد نظر أبو جعفر فى المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون أبواب الحساب وفى الطب وأخذ منه قسطا وافراً ، قال عنه أحد معاصريه «إنه كان كالقارىء الذى لا يعرف إلا القرآن ، وكالمحدث الذى لا يعرف إلا الحديث ، وكالفقيه الذى لا يعرف إلا الفقه ، وكالنحوى الذى لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذى لا يعرف إلا الحساب ، وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم » .

وهذا العلم الواسع ، والمعرفة الغزيرة ، والتحصيل الدائب ، مع ثقته بنفسه وعلو همته ، جعله يقدم على تفسير القرآن ، ويضطلع بهذه التبعة الخطيرة . ولما هم بتفسير القرآن قال لأصحابه « أتنشطون لتفسير القرآن ؟ » فقالوا « كم يكون قدره ؟ » فقال « ثلاثون ألف ورقة » فقالوا « هذا مما يفنى الأعمار قبل تمامه » . فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة ، وقد وفق فى تفسيره . وحاز إعجاب العلماء الأعلام ، وظفر بتقديرهم العالى . والظاهر أن تفسير القرآن اضطره إلى مراجعات تاريخية كثيرة ، وأوحى إليه فكرة كتابة تاريخ العالم ، ولما انتوى ذلك بعد فراغه من التفسير شاور أصحابه فقال لهم « أتنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ » فقالوا « كم قدره ؟ » فذكر نحواً مما ذكره فى التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال « إنا لله ! ماتت الهمم ! » فاختصره فى نحو ما اختصر التفسير .

وقد أفاد الطبرى من المواد التى جمعها مؤرخو القرن الثانى الهجرى ، وانتفع بحركة النقل عن اللغات الأجنبية التى بدأت فى ذلك القرن ، واستعمل طريقة الإسناد التى جرى عليها رواة الحديث . وقد تأثر بطريقتهم فى كتابه ، واستطاع أن يجمع فيه مجموعة كبيرة من مختلف الروايات والأخبار التاريخية استوعبت

(١) معجم الأدباء الجزء الثامن عشر ص ٥٩

كل ما تقدمها ، وقد استطاع أن يربط بعضها ببعض ببراعة فائقة . وعيب الطبرى الأصيل هو عيب مؤرخى العرب جميعهم ، وهو أنهم لا يتجاوزون الوصف والسرد الحولى . ولم يفكر الطبرى فى تحليل الحوادث ، ولم يحاول تعرف أسبابها ، ولم يعمل على كشف البواعث العميقة المستخفية التى تعمل وراء التغيرات الاجتماعية الظاهرة ، وكان يكتفى بذكر الأسباب المباشرة . وهو فى روايته للحوادث يكتفى كذلك بالتعويل على الإسناد ، دون أن يعرض النص نفسه على تفكيره الخاص ، ويزنه بميزانه ، ويخضعه لبحثه وتحليله ، وهو يصارحنا بذلك فى بساطة مستحبة فيقول فى مقدمة كتابه « وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أنى راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه ، والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ، وأستنبط بفكر النفوس ، إلا اليسير القليل منه ، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين ، وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ، ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول ، والاستنباط بفكر النفوس ، فمهما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة ولا معنى فى الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا » .

وهذه هى الطريقة التى انتقدها ابن خلدون فى مقدمته ، وحمل عليها ، وقال فى التنديد بها(١) « إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ،

(١) مقدمة ابن خلدون صفحة ٩ طبع المطبعة الشرقية بمصر .

ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقـــل المغالط فى الحـكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا ، لم يعرضوها على أصولها . ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيـار الحـكمة والوقوف على طبائع الـكائنات ، وتحـكيم النظر والبصيرة فى الأخبار ، فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط ، ولا سيما فى إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت فى الحـكايات ، إذ هى مظنة الـكذب ، ومطية الهذر ، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد » .

وقد أخذ ابن خلدون على الطبرى ذهابه إلى أن غزوات التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب قد امتدت إلى إفريقية والمغرب ، وقال إن هذه الأخبار بعيدة عن الصحة ، وعريقة فى الوهم والغلط . وإنها أشبه بأحاديث القصاص الموضوعة ، وذلك لأن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب ، وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن .

والأسلوب الذى اتبعه مؤرخو العرب بوجه عام فى أكثر مؤلفاتهم التاريخية كان يضطرهم من بادىء الأمر إلى ممارسة نوع خاص من النقد التاريخى ، وذلك لأن التاريخ كان عندهم قائماً على الثقة بالشاهد الأول ، والاعتماد على صدق روايته ، وصحة إدراكه ، واستقامة أخلاقه ، وقد استلزم ذلك بذل مجهود ضخم فى تحرى سير أمثال هؤلاء الرجال الذين يصح الاعتماد على أقوالهم ، والأخذ برواياتهم . وكان على المؤرخ أن يشعر نفسه الاطمئنان إلى هؤلاء الرواة بعد التحقق والتثبت ، والظاهر أنه كان يجد أن الرواة ونقلة الأخبار والحفاظ أهل للثقة والرجوع إلى أقوالهم متى عرفوا باستقامة الأخلاق ، وسلامة العقيدة ، والبعد عن الشبه والريب ، واشتهروا بالسمعة الطيبة وحسن السيرة ، أما نقد الرواية فى ذاتها وتحقيقها فقد قصروا فيه تقصيراً واضحاً . والنقد التاريخى بالمعنى الحديث لم

يعرفه الواقدى ولا الطبرى أو ابن قتيبة أو المسعودى ، ولم يقدر أهميته سوى ابن خلدون ، فهو الذى عرف مداه ، وأدرك طبيعته . والواقع أن الحاجة كانت ماسة إلى ممارسة هذا النوع من النقد التاريخى فى القرن الثانى والقرن الثالث الهجريين ، فقد اختلط بروايات هذين القرنين التاريخية الكثير من الأوهام والخزعبلات والأكاذيب المصنوعة ، والأقاويل المزيفة ، وكان للعصبيات المختلفة والأغراض السياسية والفرق المتنافرة أثر واضح فى ترويج بعض الروايات ، وإذاعة طائفة من الشائعات ، واختلاق ضروب من الأكاذيب . وقد كان الطبرى رجلا واسع المعرفة ، غزير العلم ، مستقل التفكير ، وإنى أرجح أن مثل هذا الرجل كان يغربل الروايات والأقاويل فى صمت وسكون فينفى ما يداخله فيه الشك ، ويثبت ما يطمئن إليه ويراه جديراً بالثقة والتصديق ، فليس هو خابط عشواء ولا حاطب ليل ، فقد اعتمد على وثائق كثيرة وأحاديث وروايات وأخبار ممحصة إلى حد ما ، وفيها ما يدل على دقة النظر وصدق الحكم ، وقد أجاد عرضها ، وأحسن تنسيقها ، حتى أغنت عن الرجوع إلى ما كان قبلها ، وأصبحت مادة يستمد منها المؤرخون ، ويعتمدون عليها ، ويسيرون فى أضوائها . وقد مهد الطبرى الطريق لمن جاء بعده من كبار مؤرخى الإسلام مثل المسعودى صاحب مروج الذهب ، وابن مسكويه مؤلف كتاب تجارب الأمم ، وابن الأثير واضع كتاب الكامل ، وأبى الفداء كاتب كتاب المختصر فى تاريخ البشر ، وابن خلدون نفسه مؤلف كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .

وأسلوب الطبرى عربى أصيل يجمع بين السهولة والجزالة والوفاء بالغرض من أقرب سبيل ، وفى تصويره للحوادث وضوح وقوة . وقد مكنته سعة اطلاعه على الأدب وأشعار العرب من أن يرصع كتابه بمجموعة صالحة من القصائد البديعة ، والمقطوعات البارعة ، والخطب البليغة ، والأقاويل الحكيمة ، وهو لا يعرضها فى بذخ وإسراف ، وإنما يذكرها فى مناسباتها ، وينزلها منازلها

اللائقة ، فيضيء بها جوانب التاريخ ، ويجلو غوامض الحوادث .

وقد عزا إليه ياقوت فى معجم الأدباء بعض أبيات من الشعر ، منها قوله فى تصوير إبائه وذكر قناعته ووفائه .

إذا أعسرت لم أعلم رفيقى — وأستغنى فيستغنى صديقى
حيائى حافظ لى ماء وجهى — ورفقى فى مطالبتى رفيقى
ولو أنى سمحت ببذل وجهى — لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وأبرز ميزة فى هذه الأبيات هى ميزة الصدق ، فهكذا عاش الطبرى أبى النفس ، عزوفا عن الدنيا ، زاهداً ، متقشفا ، متقللا ، قانعاً بما كان يأتيه من مال ضيعة ورثها عن أبيه . وقد وجه إليه مرة محمد بن عبيد الله الوزير بدرة فيها عشرة آلاف درهم وكتب معها رقعة وسأله أن يقبلها ، وقال للذى حملها إليه « إن قبلها وإلا فسلوه أن يفرقها فى أصحابه ممن يستحق » فلما دخل عليه الرسول وأوصل إليه الرقعة امتنع من قبول الدراهم ، ولما قال له الرسول « فرقها فى أصحابك على من يحتاج إليها ولا تردها » أجابه الطبرى « هو أعرف منى إذا أراد ذلك » .

ومع طول معاناته للدراسات الجدية ومعالجته التأليف فى المسائل الصعبة التى تستغرق الجهد ، وتعنى النفوس ، وترهق الأعصاب ، ظل محتفظا بهدوء النفس ، وصفاء الخاطر ، وطيبة القلب . وقد ترك أثراً جميلا فى نفوس عارفيه وتلامذته ومنافسيه ، وقد وصفه أحد الآخذين عنه فقال « كان أبو جعفر ظريفاً فى ظاهره ، نظيفاً فى باطنه ، حسن العشرة لمجالسيه ، متفقداً لأحوال أصحابه ، مهذباً فى جميع أحواله ، جميل الأدب فى مأكله وملبسه وما يخصه فى أحوال نفسه ، منبسطاً مع إخوانه ، حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة ،

وكان إذا أهدى إليه مهد هدية مما يمكن المكافأة عليه قبلها وكافأه ، وإن كانت مما لا يمكن المكافأة عليه ردها واعتذر إلى مهديها » .

وكان صاحب هـــذه النفس النبيلة والروح السامية والهمة العالية رجلا أسمر إلى الأدمة ، أعين نحيف الجسم مديد القامة ، لم يغبر شيبه حتى وافته المنية يوم السبت لأربع بقين من شوال سنة ٣١٠ هجرية ، وقد فرغ من تصنيف كتابه فى التاريخ سنة ٣٠٣ وقطعه على آخر سنة ٣٠٢ ، وربما كان الطبرى والجاحظ وابن حزم الظاهرى أغزر المؤلفين إنتاجاً فى تاريخ الأدب العربى برمته .

ابن عبد ربه أو المؤرخ الأديب

كتاب « العقد » الذى اشتهر باسم « العقد الفريد » للأديب الأندلسى أبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه من الأصول الأدبية المعدودة ، ومن المراجع التاريخية المأثورة ، ويمتاز بغزارة مادته ، وحسن تبويبه ، وجودة اختياره ، وقدم عهده . وتطالعك من وراء أخباره المنوعة ومختاراته المنتقاة شخصية مؤلفه الأديب المطبوع ، والناقد البارع ، والشاعر المجيد ، والفقيه العالم المتمكن . وكتاب العقد من الكتب القلائل الجديرة بالعناية والخليقة بالدرس ، وقد أحسنت لجنة التأليف والترجمة والنشر فى محاولة إخراج هذا الكتاب القيم إخراجا علمياً مصححا جيد الطاقة حسن الطبع مقبول الصورة ، فقد كانت الطبعات القديمة رديئة الطبع ، محشوة بالأخطاء ، تنفر من قراءته ، وتصد عن الاستفادة منه ، لرداءتها ودمامتها وامتلائها بالتحريف والتصحيف . ومن مقومات النهضة الأدبية الحقة دراسة الأصول الأدبية ، واصطناع المنهج التاريخى من أقوم السبل ، وأصح الأساليب فى تلك الدراسة . والأمم التى لا تربط ماضيها بحاضرها تصبح من الأمم المقتلعة السطحية ، وكتاب العقد فى طليعة تلك الأصول الحافلة بالذخائر ، ومن الطرف النفيسة التى خلفها السلف المجد الصالح .

وقد ولد ابن عبد ربه مؤلف هذا الكتاب الجامع أو الموسوعة الأدبية التاريخية فى قرطبة سنة ٢٤٦ هجرية ، وكان جده الأعلى سالم من موالى الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل مؤسس الأسرة الأموية بالأندلس .

وأخبار ابن عبد ربه التى بين أيدينا قليلة ، فليس عندنا بيان موجز أو مفصل عن العمل الذى كان يباشره ، أو المنصب الذى كان يشغله ، وقد مدح بعض أمراء الأندلس الذين عاصروه مثل الأمير محمد والمنذر وعبد الله ، وله فى مدح الناصر

طائفة من المدائح ، والظاهر أنه كان على شيء من الصلة الوثيقة به ، وقد أصيب في آخر حياته بالفالج ، وكانت وفاته فى سنة ٣٢٨ هجرية ، وروى الضبي له ستة أبيات ذكر أنها آخر ما قاله من الشعر ، وقد أشار فيها إلى استطالة حياته ، وامتداد عمره ، وما أصابه فى آخر أيامه من العلل والأسقام ، قال : —

كلانى لما بى عاذلى كفانى ... طويت زمانى برهة وطوانى
بليت وأبلتنى الليالى وكرها ... وصرفان للأيام معتوران
ومالى لا أبلى لسبعين حجة ... وعشر أتت من بعدها سنتان
فلا تسألونى عن تباريح علتى ... ودونكما منى الذى تريان
وإنى بحول الله راج لفضله ... ولى من ضمان الله خير ضمان
ولست أبالى من تباريح علتى ... إذا كان عقلى باقيا ولسانى

ويمكننا أن نستخلص من النوادر والقصص التى تروى عن ابن عبد ربه أنه كان من الأدباء الظرفاء ، والعلماء الذين يكرهون التزمت ، وينزعون إلى طلب المتعة ، واقتناص اللذة . وللبيئة التى نشأ بها أثر واضح فى ذلك ، فقد كانت قرطبة حينذاك أعظم مدن الأندلس ، وكانت تضارع بغداد من وجوه كثيرة ، وكان كثيرون بين أهلها من الأثرياء الموسرين . وتكاثر الثروة يجعل أسباب الترف ودواعى المتعة وضروب اللهو موفورة ميسورة . وكان الغناء شائعا فى قرطبة ، وكانت تفد إليها الجوارى والمغنيات من سائر الأقطار الإسلامية . وقد نهض زرياب بالغناء الأندلسى وطبعه بطابعه ، وكان أكثر المغنين والمغنيات من تلامذته وتلميذاته، والآخذين عنه ، والمتأثرين بمذاهبه . وكان ابن عبد ربه مشغوفا باستماع الغناء ، روى الفتح بن خاقان فى كتاب المطمح(١) عن أبى محمد بن حزم أن ابن عبد ربه مر بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء ، فسمع منه غناء أذهب

---

(١) مطمح الأنفس صفحة ٥٨ الطبعة المصريه .

لبه ، وألهب قلبه ، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رش بماء من أعاليه ، فاستدعى رقعة وكتب إلى صاحب القصر بهذه الأبيات .

يامن يضن بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا الضن فى أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمعى ومن به صوتا يجول مجال الروح فى الجسد
لو كان زرياب حيا ثم أسمعه لذاب من حسد أو مات من كمد
أما النبيذ فإنى لست أشربه ولست آتيك إلا كسرتى بيدى

وذكر المقرى فى النفح(1) أن هذه الجارية كانت تسمى مصابيح ، وكانت عند الكاتب أبى حفص عمر بن قلهيل ، وقد أخذت الغناء عن زرياب نفسه ، وروى أنها كانت فى غاية الإحسان والنبل وطيب الصوت ، وأن سيدها عند قراءة أبيات ابن عبد ربه خرج حافياً وأدخله إلى مجلسه فتمتع من سماعها .

وقد خصص ابن عبد ربه من عقده كتاباً للغناء واختلاف الناس فيه ، وهو كتاب « الياقوتة الثانية » ، وذكر فيه كثيراً من الروايات التى احتج فيها الناس بإجازة الغناء ، وذكر بعض الأحاديث التى تجيزه ، وقد استهل هذا الكتاب بقوله « وكرهنا أن يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الآداب والحكم والنوادر والأمثال عطلا من هذه الصناعة التى هى مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد، وزاد الراكب، لعظم موقع الصوت الحسن من القلب ، وأخذه بمجامع النفس » .

ويقول فى موضع آخر من هذا الكتاب « وقد يتوصل بالألحان إلى خير الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق ، من اصطناع المعروف ، وصلة الأرحام ، والذب عن الأعراض ، والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكى

---

(1) نفح الطيب جزء ٤ صفحة ١٢٧ تحقيق الأستاذ محي الدين عبد الحميد

الرجل بها على خطيئته ، ويرق القلب من قسوته ، ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله في ضميره » .

وهذا كلام يستوقف النظر ، ويستدعي الملاحظة ، ويمكننا أن نتبين منه حسن تقدير الأندلسيين للغناء والموسيقى ، وإدراكهم لوظيفتها السامية ، وأثرها في صقل النفوس ، وتهذيب العواطف ، وترقيق القلوب .

والظاهر أن ابن عبد ربه لم يقتصر على الاستمتاع بسماع الأصوات الجميلة ، بل كان ولوعا كذلك باجتلاء الوجوه الحسان أينما كانت ولمن كانت ، وربما يكون قد أسرف في ذلك على نفسه ، فقد قال حينما آثر التوبة :

يارب غفرانك عن مذنب   أسرف إلا أنه نادم

ولم يكتف ابن عبد ربه — على ما يظهر — بالاستمتاع بسماع الغناء ، واجتلاء الوجوه الحسان ، بل أكثر من الشراب . والأرجح أنه ظل عاكفاً على الشراب حتى تقدمت به السن ، قال في شيخوخته :

أتلهو بين باطية وزير   وأنت من الهلاك على شفير

فيامن غره أمل طويل   به يردى إلى أجل قصير

أتفرح والمنية كل يوم   تريك مكان قبرك في القبور

والظاهر من الأبيات التي قالها في الزهد والتوبة أنه لم يمل إلى الزهد ويشرع في التوبة إلا حينما اعتلت صحته ، وضعفت بنيته ، وكلت حواسه ، فهي مثل توبة أكثر الحسيين الذين لا يعرفون الزهد أو التوبة بدافع من التقوى أو قوة الإرادة وإنما يعرفونها حينما تضعف حواسهم ، وتخذلهم بنيتهم ، وهم في هذه الحالة يكثرون من التظاهر بالورع ، والإفراط في الزهد والعبادة ، وفي الوقت نفسه يكثرون من التحسر على أيام الشباب وعهود اللهو ، ومن أشعاره في ذكرى الشباب قوله :

شبابي كيف صرت إلى نفاد ... وبدلت البياض من السواد
فراقك عرف الأحزان قلبي ... وفرق بين عيني والرقاد
زمان كان فيه الرشد غياً ... وكان الغي فيه من رشادي
فكم لي من غليل فيك خاف ... وكم لي من عويل فيك بادي

ويعترى الحسيين حينما يقعد بهم عجز الشيخوخة والهرم عن مباشرة اللذات والاستمتاع بالحياة نوع من التشاؤم ، فيرون أن لذات الحياة فانية ، ومتعها خدعة، وأن أحزانها وهمومها باقية ، وأنها ترجح مسراتها ولذاتها ، وأن الحياة قصيرة المدى ، سريعة الكر ، ولا تخلف فى النفس سوى اللوعة والأسى ، ولذا يميلون إلى ذم الدنيا ، وإظهار الزهد فى نعيمها وطيباتها ، حتى يشتبه أمرهم بأمر العباد الناسكين ، والأولياء الزاهدين ، من ذلك قول ابن عبد ربه :

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب
هى الدار ما الآمال إلا فجائع ... عليها ولا اللذات إلا مصائب
فكم أسخنت بالأمس عينا قريرة ... وقرت عيونا دمعها الآن ساكب
فلا تكتحل عيناك منها بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهب

وقد أجاد ابن عبد ربه دراسة علوم عصره من تاريخ وشعر ونحو ولغة وفقه ودين ، وأثر هذه الدراسة العلمية المستوعبة الشاملة يتجلى فى كل باب من أبواب كتابه ، وهذه الثقافة الكثيرة الجوانب أكسبته اعتدالا فى التفكير ، وسعة فى الرأى والنظر، وتجافت به عن الضيق والتعصب والتزمت ، وهو يعول فى مراجعه على علماء المشارقة ، ويكثر من النقل عنهم ، وعمدته أمثال المبرد والأصمعى والمدائنى وأبى عبيدة وابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم من الأخباريين والنحاة والمحدثين والفقهاء ،وقد لحظ ذلك الصاحب بن عباد حينما أطلع على كتاب

العقد فقال فيه كلمته المشهورة « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، وإنما هو يشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه » .

وقد كان ابن عبد ربه مولعا بالهجاء ، محبا للدعابة والفكاهة ، وقد ذكر لنا المقرى فى النفح(١) بعض ماحدث بينه وبين أبى محمد يحى القلفاط الشاعر ، وقد كان القلفاط صديقا لابن عبد ربه ، ففسد ما بينهما بسبب أن ابن عبد ربه مر به يوما وكان فى مشيه اضطراب فقال له القلفاط « أبا عمر ماعلمت أنك آدر إلا اليوم لما رأيت مشيك » فقال له ابن عبد ربه « كذبتك عرسك أبا محمد » فعز على القلفاط كلامه وقال له « أتتعرض للحرم ؟ والله لأرينك كيف الهجاء » ثم صنع فيه قصيدة أولها .

ياعرس أحمد إنى مزمع سفرا ... فودعينى سرآ من أبى عمرا

وتهاجيا بعد ذلك ، وكان القلفاط يلقبه بطلاس لأنه كان أطلس اللحية ، ويسمى كتاب العقد « حبل الثوم » .

وأثر ميل ابن عبد ربه إلى الهجاء والدعابة والفكاهة ظاهر فى كتاب العقد ، ومن سخريته بالمبرد فى كتابه قوله عنه « ما أحسبه لحقه هذا الاسم الا لبرده » وهو بارع فى فن الهجاء لأنه يحسن الوقوع على المساوىء ، ويصبها فى القالب المضحك ، فيضطرنا إلى أن نشترك معه فى الضحك والسخرية ، من ذلك قوله :

مابال بابك محروسا ببواب ... يحميه من طارق يأتى ومنتاب
لا يحتجب وجهك الممقوت عن أحد ... فالمقت يحجبه من غير حجاب
فاعزل عن الباب من قد ظل يحجبه ... فإن وجهك طلسم على الباب

---

(١) الجزء الرابع من النفح صفحة ٢٧٣ تحقيق الأستاذ محي الدين عبد الحميد .

وقد يمزج الهجاء بشكوى الزمن مثل قوله .

وأيام خلت من كل خير ودنيا قد تدرعها الكلاب
كلاب لو سألتهمو ترابا لقالوا عندنا انقطع التراب

وقال شاكيا الشيب والحكام .

جار المشيب على رأسى فغيره لما رأى عندنا الحكام قد جاروا

وكان فى بعض الأحيان يفرط فى الإقذاع ، ويسف فى الهجاء ، شأن الشعراء الذين شغفوا بالهجو ، وكانت آداب عصرهم تسمح لهم بذلك .

ومن أشعاره المؤثرة قوله فى رثاء ولده :

واكبدا قد تقطعت كبدى وأحرقته لواعج الكمد
مامات حى لميت أسفا أعذر من والد على ولد
يارحمة الله جاورى جدثاً دفنت فيه حشاشتى بيدى
ونورى ظلمة القبور على من لم يصل ظلمه إلى أحد
لا صبر لى بعده ولا جلد فجعت بالصبر فيه والجلد
يالوعة لا يزال لاعجها يقدح نار الأسى على كبدى

وشعر ابن عبد ربه مثل نثره يمتاز بعذوبة الألفاظ وسهولتها ، وحسن اختيارها ، ووضوح المعنى ، والبعد عن التكلف ، وترك استعمال الغريب النافر ، وإيثار الجزالة والسلاسة . وفى بعض أشعاره تتغلب ثقافته الواسعة على عواطفه ومشاعره فيجىء شعره غثا فاتراً لاروح فيه ولا حياة ، أو محاكاة للشعر القديم خالية من التجديد والابتكار ، وقد روى الفتح بن خاقان فى المطمح أن بعضهم أخبره أن الخطيب أبا الوليد بن عيال حج ، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبى واستشرف ، ورأى أن لقياه فائدة يكتسبها وحلة فخر لا يحتسبها ، فصار إليه

فوجده في مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلا ، ثم قال[1] : أنشدني لمليح الأندلس ، يعني ابن عبد ربه ، فأنشده .

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقاً ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله دراً يعود من الحياء عقيقاً
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقاً

فلما أكمل إنشادها استعادها منه ، وقال « يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا » .

ولكني يخالجني الشك في صحة هذه الرواية ، وقد نقلها ياقوت في معجمه دون تعليق وكذلك فعل المقري في النفح . وقد توفي ابن عبد ربه سنة ٣٢٨ هجرية ، والمتنبي كان في مصر بين سنة ٣٤٦ هجرية وسنة ٣٥٠ ، وقول المتنبي « تأتيك العراق حبوا » يشعر بأن ابن عبد ربه كان حياً حينذاك ولم يكن ثاوياً في قبره ، وما أحسب المتنبي كان يقصد أن العراق يذهب حبواً لزيارة قبر ابن عبد ربه ! وفضلا عن ذلك فإني لست واثقاً من أن ذوق المتنبي الأدبي كان يسيغ مثل هذا الشعر ، ويرضى عن طريقته ، ومهما يكن من الأمر فان ابن عبد ربه كانت له شهرة واسعة ومكانة عالية في الأندلس خاصة وسائر الأقطار الإسلامية عامة . ولما أراد أبو علي الحسن التيمي القيرواني أن يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم وذلك في الرسالة التي بعث بها إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم أشار إلى ابن عبد ربه فقال[2] « ليس بيننا وبينكم غير روحة راكب أو رحلة قارب ، لو نفث من بلدكم مصدور لأسمع

---

(١) مطمح الأنفس صفحة ٥٩ ومعجم الأدباء الجزء الرابع صفحة ٢٢٢ ونفح الطيب الجزء التاسع صفحة ٢٦٢ .

(٢) النفح الجزء الرابع صفحة ١٥٣ .

عن بلدنا فى القبور ، فضلا عمن فى الدور والقصور . وتلقوا قوله بالقبول كما تلقوا ديوان أحمد بن عبد ربه الذى سماه بالعقد ، على أنه يلحقه فيه بعض اللوم ، لا سيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه ، أكثر الحز وأخطأ المفصل ، وأطال الهز لسيف غير مقصل ، وقعد به ماقعد بأصحابه من ترك مايعنيهم وإغفال ما يهمهم » ونرى من ذلك أن الأديب القيروانى حينما أراد أن ينتقص الأندلسيين رأى أن ينال منهم بالتقليل من قيمة عمل رجل يعده مفخرة من مفاخرهم ، وحجة فى أدبهم .

وقد نظم ابن عبد ربه أرجوزة تاريخية ضمنها انتصارات عبد الرحمن الناصر ، وهى أرجوزة مطولة تجاوزت أربعمائة بيت من الشعر ، وهى من قبيل شعر الملاحم فى الأدب العربى . وقد ذكر فيها الغزوات تبعاً لتسلسل تاريخها مبتدئا من سنة ٣٠٠ هجرية إلى سنة ٣٢٢ وهو يقول فى تقديمها(١) « وهذه الأرجوزة التى ذكرت جميع مغازيه وما فتح الله عليه فيها فى كل غزاة » وقد استهلها بقوله

سبحان من لم تحوه أقطار ... ولم تكن تدركه الأبصار

ومن عنت لوجه الوجوه ... فماله ند ولا شبيه

وينتقل بعد التسبيح إلى مدح الناصر فيقول :

أقول فى أيام خير الناس ... ومن تحلى بالندى والباس

ومن أباد الكفر والنفاقا ... وشرد الفتنة والشقاقا

ونحن فى حنادس كالليل ... وفتنة مثل غثاء السيل

حتى تولى عابد الرحمن ... ذاك الأغر من بنى مروان

وصبح الملك مع الهلال ... فاصبحا ندين فى الجمال

واحتمل التقوى على جبينه ... والدين والدنيا على يمينه

---

(١) الجزء الرابع من العقد طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر صفحة ٥٠٠ .

قـد أشرقت بنوره البلاد ‏‏ ‏ وانقطع التشغيب والفساد

ولهذه الأرجوزة قيمتها من الناحية التاريخية لما اشتملت عليه من ذكر الوقائع وتواريخ حدوثها وأماكنها وأسماء كثير من القواد والحصون . والأرجوزة فى مجموعها جيدة النظم ، حسنة السرد ، توخى ناظمها الدقة فى ذكر الحوادث ، والظاهر أنه أراد بنظم هذه الأرجوزة مجاراة ابن المعتز فى أرجوزته التاريخية التى ذكر فيها اعمال الخليفة المعتضد .

وفى كتاب العقد أخبار كثيرة ، وفوائد جمة ، وطرف ونوادر عن كبار رجال الإسلام سواء من الخلفاء والقواد والحكام أو من الحكماء والمتكلمين والشعراء والكتاب والمغنين ، وفيه كثير من المعلومات التاريخية ، والنصوص الأدبية ، وأخبار عن العرب فى الجاهلية والإسلام ، وألوان معيشتهم ، وأساليب حياتهم . وقد جعله وجوده بالأندلس بعيداً عن نفوذ حكام الشرق ، ومكنه ذلك من أن يكون أقدر على الصراحة وأكثر حرية فى إبداء الرأى ، ولكنه مع ذلك لم يستطع التغلب على أهوائه وميوله . وابن عبد ربه مؤرخ بارع ، واسع الإحاطة ، جيد السرد للأخبار والوقائع ، ولكن يلزم أن نتلق أخباره ورواياته بشىء من التحفظ ، لأنه حذف ذكر الإسناد ، وبعض الأخبار التى رواها لا نعرف من أين استقاها ، وهو يصارحنا بطريقته فيقول إنه عمد إلى بعض الأخبار فاختصرها أو اختار منها ما يلائم كتابه ، ويرضى ذوقه . وقد لحظ نقاده أنه ينقل بعض الأخبار على علاتها دون غربلة أو تمييز ، ودون عرضها على محك النقد ووزنها بميزان التفكير الدقيق ، وقد كان هدف الرجل أدبيا قبل كل شىء ، أى أنه كان يريد تسلية القارىء وإمتاعه والترفيه عنه بالأخبار المونقة ، والروايات المستجادة ، والأقوال البديعة ، والحكم والأمثال والأشعار . وقد أشار فى المقدمة إلى ذلك فقال « وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجواهر ولب اللباب ، وإنما لى فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش فى صدر كل كتاب ،

وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور الحكماء والأدباء ، واختيار الكلام أصعب من تأليفه ، وقد قيل اختيار الرجل وافد عقله » .

وربما لا يكون اختيار الكلام على وجه الإطلاق أصعب من تأليفه كما حاول أن يعتقد ابن عبد ربه ، ولكن الاختيار مهما يكن أمره دليل عقل المرء ، وعنوان ذوقه ، وقد أحسن ابن عبد ربه الاختيار فى كتاب العقد ، فدل على سلامة ذوقه ، ورجاحة عقله ، وغزارة مادته ، وأصالة أدبه .

المسعودى أو المؤرخ الجغرافى

بين التاريخ والجغرافية علاقة صميمة ، ورابطة وثيقة ، جعلت بعض المفكرين يذهبون إلى أن الفهم الصادق للتاريخ وتفسيره الصحيح لا يكونان إلا عن طريق البحوث الجغرافية ، وآمن بعض الناس وصدق بالجبرية الجغرافية وحسبها وحدها كافية لجلاء ماغمضت أسبابه واستسرت دوافعه من أحداث التاريخ وتطوراته ، وقد عارض هذا الرأى ونقده وأظهر بطلانه المؤرخ المفكر توينبى[1] ، وقد شغلت مشكلة علاقة الإنسان ببيئة اليونان القدامى ، وبدا لأفلاطون أن يصدر حكماً حاسماً فى الموضوع يلائم نزعته المثالية فقال « إن البلاد لا تملك الناس ، وإنما الناس هم الذين يملكون البلاد[2] » والواقع أن البيئة لم تسيطر قط على الإنسان سيطرة مطلقة ، ولكن الإنسان مع ذلك لم يستطع أن يتغلب على تأثيرها تغلبا تاماً ، وأوضح مكانة للجغرافية فى التاريخ أنها تدرس دراسة مستوعبة دقيقة علمية نزيهة بأساليبها الخاصة وطرائقها الفنية العلمية ، مجالات النشاط الإنسانى ومواقع الحوادث التاريخية ، وإبراز خصائص هذه المجالات ومميزات هذه المواقع لا يعرض على أبصارنا اللون المحلى لهذه المجالات والمواقع فحسب ، وإنما يرينا كذلك كيف تأثر بها النشاط الإنسانى والحوادث التاريخية ، ومما يلاحظ فى عالم الأدب أن فحول الروائيين الواقعيين مثل بلزاك وفلوبير وتولستوى وغيرهم يتحرون الدقة فى توصيف البيئة ورسم الأمكنة والمواقع التى تدور فيها حوادث رواياتهم وأقاصيصهم حتى يشعر القارىء بالعلاقة الأكيدة بين طبيعة المكان والحوادث المروية ، وكثيراً ما تشبه الجغرافية بالمسرح ويشبه التاريخ بالرواية

---

(١) راجع من صفحة ٥٥ إلى صفحة ٥٩ من مختصر كتابه « دراسة التاريخ » Study of History .

(٢) نقل هذا الرأى عن أفلاطون البحاثة الفرد كيرشوف فى صفحة ٣ من كتابه « الإنسان والأرض » Man and Earth .

التمثيلية التى تمثل به ، وهو تشبيه تعوزه بعض الدقة ، وذلك لأن الرواية التمثيلية تصلح للتمثيل على مختلف المسارح فى المناطق المتباينة ، ولكن روايات التاريخ لا تمثل سوى مرة واحدة ، وهى تتأثر فى أثناء تمثيلها إلى حد كبير بخصائص المسرح الذى يتفق تمثيلها به ، فرواية نابليون مثلا فى إسبانيا أو روسيا أو مصر لا يمكن أن نتمثلهــــا غير متأثرة بمسرح حوادثها فى أسبانيا وروسيا ومصر ، ولا نزاع فى أن طبيعة البلاد الأسبانية أو السهوب الروسية أو الأراضى المصرية كان لها أثر واضح فى إخراج الرواية وتمثيلها .

ودراسة الجغرافية معناها دراسة عامل هام من العوامل الكثيرة التى تعمل فى تكوين التاريخ ونسج خيوطه ، والمؤرخ يحاول أن يصور أعمال الناس ويكشف عن دخائل الفكر البشرى ، وكلما أجاد الاستقصاء ، وأمعن فى تحرى الحق ومعرفة الواقع وجد نفسه مضطراً إلى الإفادة من جهود الكثيرين الذين يعملون فى مناطق أخرى قريبة من منطقة بحثه ، فهو فى حاجة إلى الإلمام بجهود الباحثين فى أصول السلالات والشعوب والأجناس ، والباحثين عن مناشىء اللغات والعادات والأديان والمعتقدات ، وكذلك هو فى حاجة إلى الاطلاع على النتائج التى ينتهى إليها الباحثون فى طبائع الأمكنة والبيئات وما توالى عليها من تغيرات ، ومن الواضح أن المؤرخ يستطيع أن يعمق دراسته ، ويكمل تجاربه وخبرته بفهم الناحية الجغرافية لمشكلاته التاريخية ، لأن التفكير الإنسانى أو العمل الإنسانى لا ينشأ ويتكون فى الفراغ ، وإنما لا بد له من بيئة تؤثر فيه تأثيرها و تطبعه بطابعها .

ولقد ذهب بعض المفكرين إلى أن التاريخ يبدأ حيث ينتهى عمل الجغرافية لأن الجغرافية تتناول الحقائق الطبيعية ، ولكن هذا التصور للجغرافية يعتوره النقص ، فحقيقة أن الجغرافية تدرس البلاد والأقطار من مختلف نواحيها وتحاول أن تتفهم علاقاتها بعضها ببعض ، تلك العلاقات المعقدة المتشابكة ، ويشمل ذلك بضرورة الحال دراسة الإنسان ، لأن الإنسان عامل فى الأرض لا يمكن تجاهله ،

فالتاريخ والجغرافية كلاهما فى حاجة إلى الآخر . وقد كانت الجغرافية قديماً تعد المكان ، وتهيء المسرح ، وتنفرد بذلك ، ولكن الإنسان استطاع بعد ذلك أن يكون له أثره فى إعداد المكان وتهيئة المسرح ، وكلما ارتقت حضارته ، وعظمت إمكانياته قوى أثره ، وزادت سيطرته على البيئة الطبيعية .

فالتاريخ فى أكثر الأحيان يفيد من الجغرافية ، ويحاول أن يماشيها ، وهيرودوت نفسه الذى يعتبره اليونانيون أبا التاريخ يلتقى فيه المؤرخ والجغرافى ، فقد كان رحالة كثير الأسفار ، وقد طاف فى أقطار الأرض المعروفة فى عهده . فزار بعد هجرته من مدينة هليكارناس التى ولد بها بلاد اليونان ، وزار مصر وجال فى أنحائها ، وأغار وأنجد ، وزار بلاد الفينيقيين ، وزار بابل وما حولها ، وجاس خلال بلاد الفرس ، وطاف بسواحل آسيا الصغرى ، كما زار المستعمرات اليونانية فى إيطاليا ، وقد وسعت هذه الزيارات آفاق تفكيره ، وصقلت عقله ، وأمدته بمعلومات وافرة ، ومكنته من الإلمام بأشياء كثيرة ، ومشاهدات جمة ، وأطلعته على مصادر مختلفة للتاريخ ، ويسرت له استماع أخبار الرواة وقراءة الآثار المكتوبة وغير المكتوبة ، وجعلت كتابه شائقاً ممتعاً لا يمله القراء ، ويتذوقونه على اختلاف ثقافاتهم ، وتباين مداركهم وملكاتهم .

وفى طليعة مؤرخى الإسلام الذين يشبهون هيرودوت فى الجمع بين التاريخ والجغرافية المؤرخ الشهير على بن الحسين المعروف بالمسعودى ، فهو مؤرخ وأخبارى من الطراز الأول ، وهو فى الوقت نفسه جغرافى راسخ القدم عالى الكعب ، وصاحب أسفار بعيدة ، وجواب أقطار نائية قاصية ، وقد سبق المسعودى بعض مؤرخى الإسلام فى الجمع بين معرفة التاريخ والتمكن من الجغرافية مثل اليعقوبى الذى ألف كتابه المشهور فى التاريخ العام وألف كذلك كتاب البلدان ، وقد جمع فيه ما عرفه بنفسه من أحوال البلدان فى عصره لأنه عانى الأسفار من صغره ، وكان كلما رأى رجلا من تلك البلدان بالمشرق والمغرب سأله عن وطنه وعصره وأحوال أهله وأجناسهم وعاداتهم فى المأكل والمشرب ، وأبعاد البلاد

ومبالغ الخراج وأخبار الفتح ، وكان يدون ما وصل إليه حتى ألف كتاب البلدان ، ومثل أبي زيد البلخي صاحب كتاب « البدء والتاريخ » وكتاب « صور الأقاليم » ، وكان أكثر هؤلاء المؤرخين الجغرافيين يؤلفون كتباً في التاريخ وكتباً أخرى في الجغرافية ، ولكن ميزة المسعودي أن الجغرافي منه يصاحب على الدوام المؤرخ ، فهو ينظر الأمور بعين المؤرخ ويتأملها في الوقت نفسه بلواحظ الجغرافي ، وهذه الخصلة هي التي تؤكد الشبه بينه وبين هيرودوت بوجه خاص ، وهي ماثلة في الكتابين اللذين وصلا إلينا من مؤلفاته الكثيرة المفقودة ، وهما « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » .

والمسعودي من أقدر مؤلفي القرن الرابع الهجري ، ومن أغزرهم مادة ، وقد قال عنه محمد بن إسحاق النديم في الفهرست إنه من أهل المغرب ، والظاهر أنه قد أخطأ في ذلك ، فقد ذكر المسعودي نفسه في الجزء الثاني من كتابه مروج الذهب ما نصه «(١) وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا به ، وإن كانت الأيام قد أنأت بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه ، وولدت في قلوبنا الحنين إليه إذ كان وطننا ومسقطنا ، وهو إقليم بابل ، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلا ، وقدره عظيما ، وكانت عنايتهم إليه مصروفة ، وكانوا يشتون بالعراق وأكثرهم يصيفون بالجبال ، وذلك لما خص به هذا الإقليم من كثرة مرافقه ، واعتدال أرضه ، ونضارة عيشه ، ومادة الوافدين إليه ، وهما دجلة والفرات ، وعموم الأمن فيه ، وبعد الخوف عنه ، وتوسطه الأقاليم السبعة ، وقد كانت الأوائل تشبهه في العالم بالقلب من الجسد ، لأن أرضه من إقليم بابل الذي تشعبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب ، وبذلك اعتدلت ألوان أهله واقتدرت أجسامهم ، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة ، وسواد الحبشة ، وغلظ البربر ومن جفا من الأمم ، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار ،

---

(١) راجع صفحة ٦٥ من الجزء الثاني من كتاب مروج الذهب (الطبعة الثانية) بتحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد .

وكما اعتدلوا فى الجبلة ، كذلك لطفوا فى الفطنة ، والتمسك بمحاسن الأمور ، وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام ، ويعز على ما أصارتنى إليه الأقدار من فراق هذا المصر الذى عن بقعته فصلنا ، وفى قاعته تجمعنا ، لكنه الزمن الذى من شيمته التشتيت ، والدهر الذى من شروطه الإبانة ، ولقد أحسن أبو دلف العجلى حيث يقول:

أيا نكبة الدهر التى طوحت بنا أيادى سبا فى شرقها والمغارب
قفى بالنى نهوى فقد طرت بالتى إليها تناهت راجعات المصائب

وقد ذكر الحكماء — فيما خرجنا إليه من هذا المعنى — أن من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينه إلى إخوانه ، وشوقه إلى أوطانه ، وبكاءه على ما مضى من زمانه ، وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة ، وإلى مسقط رأسها تواقة ، وللإلف والعادة قطع الرجل نفسه لصلة وطنه ، وقال ابن الزبير « ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم » وقال بعض حكماء العرب « عمر الله البلدان بحب الأوطان » وقالت الهند « حرمة بلدك عليك كحرمة والديك ، لأن غذاءك منهما ، وغذاءهما منه » وقال آخر « أولى البلدان بصبابتك بلد رضعت ماءه ، وطعمت غذاءه » وقال آخر « ميلك إلى موضع مولدك من كرم محتدك » وقال بقراط « يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع إلى هوائها ، وتنزع إلى غذائها » ، وقال أفلاطون « غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها » وقال جالينوس « يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة ببلل الأرض »

وقد أعاد المسعودى هذه النغمة ، وضرب على هذا الوتر الحساس فى كتاب « التنبيه والإشراف » فقال حينما تحدث عن العراق « (١) والصقع الذى مدينة السلام منه أفضل مواضع الأرض جميعاً فى الطيب والغذاء ، وذلك أن أطيب

(١) كتاب التنبيه والإشراف تصحيح الأستاذ عبدالله اسماعيل الصاوى صفحة ٣٧ .

خيرات الدنيا بعد الأمن والعافية والعز والرئاسة صلاح الماء والهواء . ثم أفضل أنهار العالم دجلة والفرات ، وإن نازع فى ذلك أهل مصر وفضلوا نيلهم ، وأطيب مواضع العالم فى كل الأزمنة عند قياس بعضها إلى بعض وقياس بعض البلدان إلى بعض موضع اجتماع دجلة والفرات ، وذلك أن بعض المواضع يطيب صيفه ، ويفسد شتاؤه فساداً يمتنع فيه عن المكاسب المهنية ، والمطالب الصناعية ، لشدة برده ، ودوام سقوط ثلجه ، ومنها مايطيب شتاؤه ويفسد صيفه ، حتى يشغل الحر والومد والبق والهوام عن تخشين الزى باللباس والتصرف فى المهن والصناعات ، ويعز علينا بما دفعنا إليه من مفارقة هذا المصر الذى به مولدنا وفيه منشؤنا ، فنأت الأيام بيننا وبينه ، وساحقت مسافاتناعنه ، فبعدت الدار ، وتراخى المزار ، لكنه الزمن الذى من شأنه التشتيت ، والدهر الذى من شرطه الإفاتة ، ولولا الشوق إلى الوطن والحنين إلى المنشأ لم نذكر ماذكرناه من هذه المعانى »

وواضح من ذلك أنه عراقى الأصل والنشأة ، وقد ذكر ياقوت فى معجمه أنه من ولد الصحابى عبد الله بن مسعود(١) ، وقد جاء مصر ، ورحل فى طلب العلم إلى أقاصى البلاد ، فطاف فى فارس وكرمان سنة ٣٠٩ حتى استقر فى اصطخر ، وفى السنة التالية قصد الهند وزار مدينة ملتان والمنصورة ، ثم عطف إلى كنباية فصيمور وانتقل إلى سرنديب (سيلان) ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصين ، وجال بعد ذلك فى المحيط الهندى وزار زنزبار وسواحل إفريقية الشرقية والسودان ، ثم قام برحلات فى بحر قزوين وآسيا الصغرى والشام والعراق وبلاد العرب الجنوبية ومصر ، وقد تحدث فى مروج الذهب مشيراً إلى رحلاته البحرية فقال(٢) « وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن ، وأصابنى

---

(١) معجم الأدباء جزء ١٣ صفحة ٩٠ .

(٢) مروج الذهب الجزء الأول صفحة ١٠٨ و ١٠٩ تحقيق الأستاذ محي الدين عبد الحميد .

فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرة فلم أشاهد أهول من بحر الزنج وفيه السمك المعروف بأفال طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع بالذراع العمرية ، وهى ذراع ذلك البحر ، والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع ، وربما ز البحر فيظهر شيئاً من جناحه فيكون كالقلع العظيم ، وهو الشراع ، وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء فى الجـــو أكثر من مر السهم ، والمراكب تفزع منه فى الليل والنهار ، وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك ، ويحشر بأجنحته وذنبه السمك إلى فمه ، وقد فغرفاه ، وذلك السمك يهوى إلى جوفه جرياً ، فإذا بغت هذه السمكة بعث الله عليها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلصق بأصل ذنبها فلا يكون لها منها خلاص ، فتطلب قعر البحر ، وتضرب بنفسها حتى تموت ، فتطفو فوق الماء فتكون كالجبل العظيم . وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمراكب فلا يدنو الأفال مع عظمتها من المركب ، ويهرب إذ رأى السمكة الصغيرة إذ كانت آفة له وقاتلة ، ويخامره شك فى تصديق القارىء لهذا الكلام فيقول « وفى بحر الزنج أنواع من السمك بصور شتى ، ولولا أن النفوس تنكر مالم تعرفه وتدفع مالم تألفه لأخبرنا عن عجائب هذه البحار ، وما فيها من الحيتان والدواب وغير ذلك من عجائب المياه والجماد » .

وقد طاف المسعودى فى البحر الهندى إلى مدغشقر ، وعاد إلى عمان ، ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤ إلى ماوراء أذربيجان وجرجان ثم إلى الشام وفلسطين ، وفى سنة ٣٣٢ زار أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق ، واستقر أخيراً بمصر ، وترك الفسطاط سنة ٣٤٥ هجرية ، وتوفى فى السنة التالية ، وقد مكنته هذه الرحلات البعيدة والأسفار المتتابعة من إجادة البحث والاستقصاء ، وجمع المعلومات التاريخية من مظانها ، والحقائق الجغرافية من مصادرها الأصلية ، وكان كثيراً مايخطر بفكره أن الأسفار قد تكون عاقته عن الانقطاع التام للتحصيل وإجادة التأليف ولذلك يقول فى مقدمة كتابه مروج الذهب(١) « على أنا نعتذر

(١) الجزء الأول من مروج الذهب تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد صفحة ١٠ .

من تقصير وإن كان ، ونتنصل من إغفال إن عرض ، لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار ، وقطع القفار ، تارة على متن البحر ، وتارة على ظهر البر ، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة ، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والزابج ، وتقحمنا الشرق والغرب ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بوسائط إرمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وطوراً بالعراق ، وطوراً بالشام ، فسيرى فى الآفاق ، سرى الشمس فى الإشراق ، كما قال بعضهم :

تيمم أقطار البلاد فتـــارة   لدى شرقها الأقصى وطوراً إلى الغرب
سرى الشمس لا ينفك تقذفه النوى   إلى أفق ناء يقصر بالركب

ويقول فى موضع آخر من المقدمة(١) « لكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله ، وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من معدنه ، وإثارة كل نفيس من مكمنه » .

ويكرر هذا الاعتذار فى مقدمة كتاب « الإشراف والتنبيه قائلا (٢) « على أنا نعتذر من سهو إن عرض فى تصنيفنا مما لا يسلم منه من لحقته غفلة الإنسانية ، وسهوة البشرية ، ثم ما دفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار ، وتواتر الأسفار طورا مشرقين وطورا مغربين كما قال أبو تمام .

خليفة الخضر من يربع على وطن   فى بلدة فظهور العيس أوطانى
بالشام قومى وبغداد الهوى وأنا   بالرقتين وبالفسطاط إخوانى

وكقوله أيضاً .

فغربت حتى لم أجد ذكر مشرق   وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

---

(١) الجزء الأول من مروج الذهب تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد صفحة ١٢ .
(٢) التنبيه والإشراف تحقيق الأستاذ عبد الله اسماعيل الصاوى صفحة ٦ .

خطوب إذا لاقيتهن رددنى جريحاً كأنى قد لقيت كتائبا،

وكان المسعودى على طول معاناته الأسفار كثير التأليف ، واسع الاطلاع منوعه ، ولذا استطاع أن يكتب فى موضوعات شتى ويحيط بها ، والكتابان اللذان وصلا إلينا من مؤلفاته الكثيرة يدلان على ترامى حدود معرفته ، وتعدد جوانب تفكيره ، فهو يبدو فيهما باحثاً جغرافياً ، ومؤرخاً أخبارياً ، ومتكلما جدلياً ، ملما بالعقائد المختلفة والمذاهب المتباينة ، وفقيها محدثاً وأديباً بارعاً ، كثير المحفوظ ، حسن الاختيار ، طريف النوادر شائق الأخبار ، وهو على غزارة معلوماته وكثرة مشاهداته خفيف الظل ، جذاب الأسلوب ، ممتعاً مبدعاً ، حسن السرد ، واضح الحجة ، مشرق العبارة ، ليس فى أسلوبه السهل المتدفق الجارى غموض ولا خفاء ولا إملال ، بل فيه لمعان وإشراق ، وسلاسة وبلاغة لم يشنها تكلف ، ولم يفسدها ادعاء وتمحل .

والظاهر أن أوفى مؤلفاته الكثيرة هو كتاب « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة » فهو كثير الإشارة إليه والإحالة عليه ، ولكنه من أعلاقه المفقودة ، وذخائره الضائعة ، على أن كتابه الحافل المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » يكفى فى الدلالة على فضله وتمكنه وسعة ذرعه .

وقد أوقف الفصول الأولى من كتابه هذا على ذكر المبدأ أو الخليقة وذرء البرية من آدم إلى إبراهيم ، ثم تناول الفترة بين المسيح والنبى محمد ، وأتبع ذلك بفصل عن الهند ومدد ممالكها وسيرها وآرائها فى العبادة ، ويتلو ذلك فصول عن الجغرافية الطبيعية والتاريخية تحدث فيها عن الأرض والبحار ومبادئ الأنهار والجبال والأقاليم السبعة وما والاها من الكواكب ، وكثيراً مايستطرد فى هذه الفصول ويذكر بعض الأقاصيص العجيبة والأخبار المستغربة ، وقد اختص الصين بفصل من فصوله كتابه فيه تقدير لديانتها وأخلاق أهلها وسياستهم ،

وتكلم بعد ذلك عن أخبار البحار وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وتناول فى فصـــول تالية تاريخ ملوك السريانيين وملوك الموصل ونينوى والكلدانيين والفرس الأولى ثم ملوك الطوائف الأشعـــانيين ثم ملوك الساسانية ، وانتقل بعد ذلك إلى أخبـــار اليونانيين وحروب الإسكندر وذكر الدولة الرومانية ، وقد أفرد لها ثلاثة فصول ، الفصل الأول عن تاريخها قبل اعترافها بالديانة المسيحية ، والفصل الثانى عن اباطرة بيزانطة السابقين لظهور الإسلام ، والفصل الثالث عن الأباطرة الذين حكموا بعد ظهور الإسلام حتى الوقت الذى ألف فيه كتابه ، وهو سنة ٣٣٢ هجرية ، وتحدث فى الفصول التالية عن مصر ونيلها وأخبار الإسكندرية ، ثم عن السودان وأنسابهم والصقالبة ومساكنهم والإفرنجة والجلالقة ، ثم اليمن وأنسابها وملوك الحيرة وملوك الشام وديانات العرب وأساطيرها وأخبار الكهان ، والبيوت المقدسة عند الهند واليونان والصقالبة والمجوس ، ثم تاريخ النبى محمد ونشأة الإسلام والخلفاء الراشدين والدولة الأموية والدولة العباسية حتى خلافة المطيع ، وقد انتهى من كتابه سنة ست وثلاثين وثلثمائة هجرية ، أى أن تأليف هذا الكتاب الجامع القيم استغرق أربع سنوات وقد وسمه بكتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » « لنفاسة ما حواه ، وعظم خطر ما استولى عليه » كما يقول المؤلف فى مقدمته .

ويمكن أن نستخلص من ذلك كله أن المسعودى قد جمع بين دفتى كتابه القيم معلومات ضخمة ، وأخباراً كثيرة ، ومشاهدات عدة ، ولكنه لم يظهر براعة ممتازة فى تنسيق هذه المعلومات ، كانت تنقصه الحاسة الفنية التى تمكنه من أن يخرج من هذه المعلومات المتناثرة والحقائق المتكاثرة كلا حياً متجاوب الأجزاء متناسق الأوضاع ، وكان على ما يظهر سريع التصديق يعوزه قليل من الشك ويقظة الملكة الناقدة ، وقد جعله ذلك يستهدف لنقدات ابن خلدون اللاذعة وملاحظاته النافذة فى مقدمته .

وبرغم ما بتآليف المسعودى من عيوب وما فى فنه من نقص فإنه مع ذلك من مؤرخى الإسلام الأفذاذ المعدودين الذين نفعوا بعلمهم الغزير ، وخبرتهم الواسعة ، والذين من حقهم أن نمر بذكراهم مرددين قول الشاعر :

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم بعد الممات جمال الكتب والسير

أبو حيان التوحيدى وابن حيان الاندلسى

أو المؤرخان الكاتبان

من أعلام البيان العربى وكبار كتابه وأوفرهم حظاً من البلاغة والإجادة وإحراز قصب السبق كاتبان كبيران يمتاز أسلوبهما بالقوة والجزالة والطرافة، وتمتاز شخصيتاهما فى التأليف بالبروز والوضوح وأوحدية النهج واستقلال التفكير، وهذان الكاتبان على بعد ما بينهما من تنائى الديار واختلاف الأوطان يتفقان فى أشياء، ويختلفان فى أشياء أخرى، وقد كان أولهما وأقدمهما عهداً كاتباً من كتاب الطراز الأول فى الأدب العربى، وخليفة الجاحظ فى سعة المعرفة وتعدد ألوان الثقافة، وامتلاك ناصية البيان، وامتداد النفس فى الكتابة، وربما كانت تنقصة فكاهة الجاحظ ومرحه وخفة روحه، ولكنه ربما كان يمتاز عنه كذلك بأنه يتناول المسائل تناولا جدياً، ويكتب عن عقيدة وصدق سريرة، فهو لا يريد أن يظهر براعته وألمعيته فى القدرة على إثبات الشيء ونفيه، أو ذمه وحمده، والتلاعب بعقول قرائه، والعبث بأفهامهم، وإنما يستغل بلاغته وقوة بيانه فى عرض وجهة نظره، والمصارحة بما يعتقده حقا، وكان الثانى مؤرخاً من المؤرخين النوادر الممتازين يكاد لا يشق له غبار فى براعة السرد، وقوة التصوير، وفحولة التعبير، مع دقة الوصف وأصالة الأسلوب، وتقارب الاسم الذى اشتهر به هذان الكاتبان كثيراً ما أدى إلى الخلط بينهما ونسبة ما كتبه أحدهما إلى الآخر، والعجيب أن الوقوع فى هذا الخطأ لم يكن مقصوراً على القراء العاديين والمتأدبين غير المتخصصين، وإنما قد شمل بعض الواقفين على تاريخ الأدب، المتعمقين فى معرفة الكتب ومؤلفيها، ومن هؤلاء العلامة التركى الحجة المعروف «حاجى خليفة» فقد عزا فى كتابه المشهور «كشف الظنون» كتاب المتين الذى

ألفه ابن حيان الأندلسي إلى أبي حيان التوحيدي بعد أن حرف اسمه وأصبح كتاب « المبين » .

وهذان الكاتبان وهما علي بن محمد الذي عرف في تاريخ الأدب باسم « أبي حيان التوحيدي » وحيان بن خلف الذي اشتهر في التاريخ باسم «ابن حيان» . وكان أبو حيان هـذا كاتباً فلسفي النزعة ، دقيق التفكير ، واسع المعرفة ، جم الإحاطة ، ولد على الأرجح في أوائل العقد الثاني من القرن الرابع الهجري ، وقد وردت بعض عبارات في كلام ياقوت عنه في معجم الأدباء ترجح أنه فارسي الأصل مثل قوله عنه إنه « (١) عمدة لبني ساسان » وقوله في موضع آخر (٢) « قرأت في كتاب البصائر لأبي حيان الفارسي » وذهب الأستاذ عبد الرازق محي الدين في كتابه القيم عنه إلى أن الأدنى إلى القبول هو أنه من أصل عربي ، وأقام ترجيحه على اعتبارين هامين ، وهما إطنابه في مدح العرب وتفضيلهم على الفرس في الجاهلية والإسلام(٣) وعدم معرفته باللغة الفارسية ، ووصفه بانه عمدة لبني ساسان ليست قاطعة كذلك في الدلالة على فارسيته فربما كان المقصود بها هنا أنه من أهل الكدية وكانت تطلق عليهم لفظ الساسانية .

والظاهر أن المعلومات الراهنة عن أبي حيان لا تمكن من الفصل في هذا الموضوع ، ولا يعرف كذلك على وجه التحديد البلد الذي نشأ به ، فياقوت يقول عنه « إنه شيرازي الأصل ، وقيل نيسابوري ، وقيل إنه واسطي » ، ومهما يكن من الأمر فإنه قد تلقى علومه على شيوخ بغداد والبصرة ، وتعمق في دراسة جميع علوم عصره من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام ، ولكنه على فضله وجلالة خطره وسمو ملكاته وتمكنه عاش بائساً يائساً طريداً مشرداً . لا يستقر به المقام في بلد من البلاد ولا يفيئه أحد من الرؤساء

---

(١) معجم الادباء الجزء ١٥ صفحة ٥ .

(٢) معجم الأدباء الجزء ٣ صفحة ٧٧ .

(٣) راجع كتاب الإمتاع والمؤانسة جزء أول من صفحة ٧٠ إلى صفحة ٩٦ .

والأعيان ظل رعايته ، أو يشمله بعطفه ، وقد اتصل بالوزيرين الأديبين ابى الفتح ابن العميد والصاحب بن عباد فلم يحمدهما ، ولم يفز منهما بطائل ، وعاد بصفقة المغبون ، واتصل بعدهما بالوزير الأديب ابن سعدان ، وكان رجلا واسع الاطلاع على جانب كبير من الفضل ، وقد أعجب بأبي حيان وأطرى علمه ، وأثنى على أدبه ، ولكن هذه العلاقة مع ذلك لم تجد عليه ، وهو كما قال عن نفسه « الجار القديم ، والعبد الشاكر ، والصاحب المخبور » وظل وهو فى جواره « يحمل بين جنبيه قلباً مغرور الرجاء ، منزور العزاء » حتى قتـل الوزير واضطر إلى الهرب والاختفاء .

ويمكن أن نستخلص من كتب أبي حيان التى بأيدينا وأحاديثه عن نفسه وعلاقاته بأعيان عصره ووصفه للذين اتصل بهم أنه لم يكن يخلو من جفاء طبع ، وخشونة جانب ، وفرط شعور بالنفس ، ولا يمكن أن نبرئه من الملق — بل ومن الإسراف فيه فى بعض الأحيان — وظروف حياته القاسية تجعلنا نبسط له العذر ، ولكنه مع ذلك لم يكن يحسن فيه إصابة الهدف ، ومعرفة من أين تؤكل الكتف ، والمحاورات التى كانت تدور بينه وبين الصاحب تبين لنا بوضوح أن أبا حيان أخطأ السبيل إلى مسارب نفس الصاحب ، ولست أحب أن أظلم أبا حيان فألقى التبعة كلها عليه ، فالظاهر أن الصاحب على جاهه وشهرته وقوة نفوذه وسطوته كان ينفس على أبي حيان أسلوبه البليغ ، وبيانه المشرق ، قال له مرة « من أين لك هذا الكلام المفوف المشوف الذى تكتب به إلى فى الوقت بعد الوقت » ثم أدركه غروره واعتزازه بنفسه فشفع ذلك بقوله لأبى حيان « كلامى فى السماء وكلامك فى السماد » وقد روى لنا أبو حيان جانباً مما وقع بينه وبين الصاحب ، ونحن من غير شك نسمع القضية من جانب واحد وهو جانب أبى حيان وحسب روايته ، ولكن منافسة الكتاب بعضهم لبعض قديمة العهد ، والتحاسد داء قديم من الصعب أن يبرأ منه إنسان ، ولم تكن أخلاق الصاحب فى هذه الناحية فوق مستوى الشبهات والظنون ، وتحامله على المتنبى فى رسالته المشهورة الموسومة « بمساوىء المتنبى » تجعلنى أعتقد أن الإنصاف وسلامة التقدير

والتغلب على الأحقاد لم تكن من طبيعة هذا الرجل المحب للشهرة المطبوع على الإثرة ، وقد كان فى سلوك الصاحب فى بعض المواقف وتصرفه على فضله وأدبه وسعة علمه وجاهه جانب من الرقاعة والادعاء والميل إلى التفصح والتفيهق لا يمكن أن يسيغه ويصبر عليه رجل عصبى المزاج ناقد للرجال ميال بطبعه إلى تصيد المعايب والوقوع على المثالب حاقد على البشر مثل أبى حيان التوحيدى ، وربما كان لحملته على الوزيرين أبى الفتح بن العميد والصاحب بن عبـــاد أثر فيما أصابه من الخمول وإهمال الناس لأمره ، فقد كان لهما فى عصرهما نفوذ واسع ، وجاه عريض ، وسلطان مكين ، وقد اضطره ضيق الحال وسوء المآل فى أواخر أيامه وقبيل غروب شمسه إلى أن يحرق كتبه غماً وحزناً ويأساً وكمداً ، لاعتقاده أن الناس قد جحدوا علمه ، وأنكروا فضله ، وعلى ما كان فى خلق هذا الكاتب القدير القليل النظير والمؤلف اللامع البارع من شذوذ والتواء وتجهم ونفار فإن أهل عصره مع ذلك جديرون باللوم لأنهم أضاعوا مثله ، وأساءوا إليـه ، ولم يرعوا له حرمة نبوغه وامتيازه ، على أن الأدب الذى لم يفد أبا حيان قد أفاد منه وأثرى ، وكتاباه المطبوعان ، وهما كتاب الإمتاع والمؤانسة وكتاب المقابسات من أنفس الكتب فى المكتبة العربية ومن الأعلاق النادرة الثمينة .

وقد فطن أبو حيـــان إلى عامل هام فى كتابة السير ، وهو عامل النزاهة والابتعاد جهد الطاقة عن بواعث الحب الشديد والتعصب الأعمى أو الكراهة الصماء والتحامل الظالم ، سأله الوزير ابن سعدان عن ابن عباد قائلا(١) « إنى أريد أن أسألك عن ابن عباد فقد انتجعته وخبرته وحضرت مجالسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته ، وعن علمه وبلاغتـه ، وغالب ما هو عليه ومغلوب ما لديه ، فما أظن أنى أجد مثلك فى الخبر عنه ، والوصف له ، على أنى قد شاهدته بهمدان لما وافى ، ولكنى لم أعجمه لأن اللبث كان قليلا ، والشغل كان عظيما ، والعائق كان واقفاً » .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة الجزء الأول من صفحة ٥٣ إلى صفحة ٦٠ .

فأجابه أبو حيان « إنى رجل مظلوم من جهته ، وعاتب عليه فى معاملتى ، وشديد الغيظ لحرمانى ، وإن وصفته أربيت منتصفاً ، وانتصفت منه مسرفاً ، فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عارياً منهما جملة ، كان الوصف أصدق والصدق بى أخلق » .

ولكن الوزير ألح عليه فى ذلك ، فقدم لنا أبو حيان صورة للصاحب أقرب إلى الذم ولكنها مع ذلك تدل على براعة فنه فى وصف الشخصيات وتآليف السير وقدرة ليست عادية ، قال :

« إن الرجل كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نتف من كل أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافاً ، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب ، وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد ، وليس عنده بالجزء الإلهى خبرة ، ولاله فيه عين ولا أثر ، وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ، ويقول الشعر ، وليس بذاك ، وفى بديهته غزارة ، وأما رويته فخوارة ، وطالعه الجوزاء ، والشعرى قريبة منه ، ويتشيع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزيديه ، ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة ، والناس كلهم محجمون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره وبسطته ، شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذىء اللسان ، يعطى كثيراً قليلا (أعنى يعطى الكثير القليل) مغلوب بحرارة الرأس سريع الغضب ، بعيد الفيئة ، قريب الطيرة ، حسود حقود حديد ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية ، أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، أما المنتجعون فيخافون جفوته ، وقد قتل خلقاً ، وأهلك ناساً ، ونفى أمة ، نخوة وتعنتاً وتجبراً وزهواً ، وهو مع هذا يخدعه الصبى ، ويخلبه الغبى ، لأن المدخل عليه واسع ، والمأتى إليه سهل ، وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أعار شيئاً من كلامه ، ورسائل منثوره ومنظومه فما جبت الأرض إليه من فرغانه ومصر

و تفليس إلا لأستفيد كلامه و أفصح به ، و أتعلم البلاغة منه ، لكأنما رسائل مولانا سور قرآن ، وفقره فيه آيات فرقان ، واحتجاجه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان ، فسبحان من جمع العالم فى واحد ، وأبرز جميع قدرته فى شخص ، فيلين عند ذلك ويذوب ، ويلهى عن كل مهم له ، وينسى كل فريضة عليه ، ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورق ، ويسهل له الأذن عليه ، والوصول إليه والتمكن من مجلسه ، فهذا هذا ، ثم يعمل فى أوقات كالعيد والفصل شعراً ، ويدفعه إلى أبى عيسى ابن المنجم ويقول « قد نحلتك هذه القصيدة إمدحنى بها فى جملة الشعراء ، وكن الثالث من الهمج المنشدين ، فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادى محكك قد شاخ على على الخدائع وتحنك — وينشد ، فيقول له عند سماع شعره فى نفسه ووصفه بلسانه ، ومدحه من تحبيره ، أعد يا أبا عيسى ، فإنك — والله — مجيد زه يا أبا عيسى والله ، قد صفا ذهنك ، وزادت قريحتك ، وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا فى العيد الماضى ، مجالسنا تخرج الناس وتهب لهم الذكاء ، وتزيد لهم الفطنة ، وتحول الكودن عتيقاً ، والحمر جواداً ، ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنية وعطية هنية ، ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعاً ، ولا يزن بيتاً ، ولا يذوق عروضاً ، ويمضى أبو حيان فى تصويره لأخلاق الصاحب فيقول « والذى غلطه فى نفسه وحمله على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه أنه لم يجبه قط بتخطئة ولا قوبل بقسوة ، ولا قيل له أخطأت أو قصرت أو لحنت أو غلطت أو أطنبت ، لأنه نشأ على أن يقال له أصاب سيدنا وصدق مولانا ، ولله دره ولله بلاؤه ، مارأينا مثله ، ولا سمعنا من يقاربه » ويصف حاله عند سماع هـــذا الإسراف فى الملق والإطراء فيقول « فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويتبسم ، ويطير فرحا ويتقسم ، ويقول ولا كذا ... وهو فى ذلك كله يتشاكى ويتحايل ، ويلوى شدقه ويبتلع ريقه ويرد كالآخذ ، ويأخذ كالمتمنع ، ويغضب فى عرض الرضا ، ويرضى فى لبوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتقابل ، ويتمايل ... ومع كل هذا يظن أن هذا خاف على نقاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال ، والذين قد فرغهم الله

لتتبع الأمور واستخراج مافى الصدور . واعتبار الأسباب ، وذلك أنه ليس بجيد العقل ولا خالص الحق » ويسترسل أبو حيان فى تحليل أخلاق الصاحب وتعليلها فى اقتدار عجيب وأسلوب شائق ، ويقول ياقوت عن أبى حيان إنه « سخيف اللسان قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان ، الذم شأنه ، والثلب دكانه ، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ، وكان مع ذلك محدوداً عارفاً يتشكى صرف زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه » وتاريخ وفاة أبى حيان غير معروف على وجـــه التحقيق ، والأرجح فيما يظهر أنها كانت فى سنة ٤٠٠ هجرية ؛ والصورة التى رسمها للصاحب قد يكون فيها شىء من المبالغة فى ذمه والجور عن القصد ، ولكنها برغم ذلك ستكون على الدوام من المراجع التى يرجع إليها المؤرخون والباحثون عند ما يكتبون سيرة الصاحب ، ويحاولون وزن أعماله ، وتحليل أخلاقه ، وتفهم شخصيته .

أما ابن حيان المؤرخ الأندلسى الكبير والذى عقد له اللواء بين مؤرخى الأندلس ، فقد ولد فى سنة ٣٧٧ هجرية بقرطبة فى عهد الخليفة الأموى المغلوب على أمره هشام الثانى بن الحكم المستنصر ، وحفيد الخليفة الناصر ، وكان زمام السلطة فى يد الوزير الخطير صاحب الدولة والصولة أبى عامر المنصور بن أبى عامر. وكان جد هذا الكاتب المؤرخ من موالى الأمير عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس .

وكان أبوه خلف المولود فى سنه ٣٤٠ هجرية من كتاب المنصور ، وقد صحب المنصور فى مغازيه المشهورة ، وشاهده عن قرب ، وكان خلف رجلا ممتازاً فى علمه وفضله وأخلاقه ، وقد مكنته صلته بالمنصور من أن يعرف بواطن السياسة ودخائل الأمور ، وأن يرى كيف يصنع التاريخ ، وتدبر السياسات ، وترسم الخطط ، وتحاك الدسائس . وليست عندنا معلومات عن نشأة ابن حيان وبواكير طفولته ومطالع شبابه ، ولكن رجلا مثقفا محنكاً مثل خلف لابد أن يكون قد

اعتنى بتنشئة نجله، وتمكينه من أن يحصل العلم من أوثق مصادره ، وأحسن مظانه. وسرعان ما ظهرت بوادر نبوغ ابن حيان ، وتجلت مواهبه واستعداداته ، وبذ زملاءه وأنداده حتى أصبح فيما بعد شيخ مؤرخي الأندلس عن جدارة واستحقاق . ولا خلاف فى أن والده خلفاً كان رجلا كثير التجارب واسع الخبرة بالحياة ، لأن طبيعة وظيفته كانت تستلزم منه معرفة واقعية بالمجتمع الذى يعيش فيه والناس الذين يتعامل معهم ، وكان على صلة واحتكاك بالطبقات الاجتماعية كلها ، وكان على علم تام بأغراض الوزير الطموح وزير هشام الثانى وأهدافه البعيدة ، كما كان على علم بأحوال الممالك المسيحية التى أخافتها انتصارات الوزير العبقرى المجاهد الذى حملت غزواته النار والدمار إلى ديارهم ، وكان خلف يعيش فى بلاط يقدر العلم والأدب ، ويعنى بتشجيعهما والأخذ بأيدى أصحابها، فغير عجيب أن يجد خلف نفسه مدفوعاً إلى إجادة تثقيف ابنه ، وإمداده بطائفة من المعلومات التاريخية الحقيقية والأخبار المؤكدة ، وقد انتفع ابنه إلى أقصى حد بهذه الذخيرة النفيسة وضمنها كتبه ومؤلفاته .

وعلاوة على ما تلقاه من أبيه من الدروس النافعة فإن طريقة الدراسة فى ذلك العصر كانت تلزم الشبان الناشئين فى بيئات فكرية وأوساط إجتماعية عالية أن يتتلمذوا على أساتذة من أجل العلماء الأثبات فى مختلف فروع المعرفة ، ويتخرجوا عليهم ، ويحصلوا منهم على الإجازة التى تدل على توفيقهم فى الدراسة وبلوغهم فيها الأمد المطلوب ، والمستوى اللائق . ومن أساتذة ابن حيان المعروفين أبو عمر ابن أبى الحباب النحوى صاحب أبى على القالى ، والأديب المشهور أبو العلاء صاعد صاحب كتاب الفصوص ، وقد تلقى الحديث على أبى حفص عمر بن حسين بن نابل وكلهم من أشهر علماء عصرهم .

والمعروف أن ابن حيان قد تقلد منصب « صاحب الشرطة » وهو من المناصب العالية فى الأندلس ، وهو يقارب منصب الوزير أو الحاجب ، والظاهر أنه لم يتقلد غيره من المناصب ليتفرغ لكتابة التاريخ ، ويحصر فيها جهوده ، ويحبس عليها

مواهبه وملكاته ، وقد أحسن بذلك صنعا ، وجعل قراء الأدب العربى ودارسى تاريخ الأندلس مدينين له .

وقد توفى ابن حيان فى رواية(١) ابن بسام وابن خلكان فى سنة ٤٦٩ هجرية أى أنه نيف على التسعين من عمره الحافل المديد ، وقد عاصر نظيره فى الأدب وصرامة النفس وحدة اللسان ومرارة النقد أبا حيان التوحيدى فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى .

وتقوم شهرة أبن حيان الأندلسى على دعائم كتابين ، وهما كتاب « المقتبس فى تاريخ الأندلس » وهو فى عشرة مجلدات ، ويشمل تاريخ الأندلس من عهد الفتح إلى أيام المؤلف ، ولم يكن موجوداً منه إلى عهد قريب سوى نسخة مخطوطة من المجلد الثالث ، وقد قام بطبعه فى باريس الأب أنطونة تحت إشراف المستشرق المعروف ليفى بروفنسال ، وقد عثر أخيراً فيما أعلم على المجلد الثانى منه ، ولم أسمع حتى كتابة هذه السطور أنه قدم للطبع ، وقد تناول المجلد الثالث عهد الأمير الأموى عبد الله بن محمد ، وهو آخر الأمراء الأمويين فى الأندلس ، وجد عبد الرحمن الثالث وسلفه فى الإمارة ، وعبد الرحمن هو الذى أصبح فيما بعد خليفة المسلمين فى الأندلس ، وتلقب بلقب الناصر لدين الله ، وقد مهد حكم الأمير عبد الله السبيل للحكم اللامع الزاهر حكم الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر ، ومكن الأمير عبد الله حفيده من أن يقوم بالدور البارع الذى قام به ، فقد كثر الثائرون بالأمير عبد الله ، وكادت سلطته فى الأندلس لا تتجاوز أحواز قرطبة ، وقوى أمر الثائر الشهير عمر بن حفصون . واشتدت شوكة غيره من الثائرين المتمردين ، فلم يضعف ذلك من عزم الأمير عبد الله ، وظل طوال حياته يكافح الثورات بعزيمة لا تكل ولا تمل ، ويقاوم الثائرين مقاومة متصلة لا تلين ، ويحاول أن يضرب بعضهم ببعض ، واستطاع بذلك أن يصون السلطة الملكية فى الأندلس ويبقى عليها

---

(١) القسم الأول من المجلد الثانى من الذخيرة صفحة ٨٥ .

(٢) وفيات الأعيان الجزء الأول صفحه ٤٥٧ (تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد) .

ويطيل عهدها ، وأخضع بالقوة والثبات الأعداء فى الداخل ، واستوجب بذلك احترام الأعداء فى الخارج .

وقد استدعى تحقيق هذا الهدف إراقة الدماء الغزيرة وإزهاق الأرواح الكثيرة . ولم يحجم الأمير عن اتخاذ الوسائل الملائمة لأغراضه دون مبالاة بالخير والشر ، فقد كان غرضه قبل كل شيء توطيد السلطة ، وكان فيه من قومه بنى أمية شدة حرصهم على النجاح الدنيوى بأى ثمن . وقد حقق أهدافه ، وترك لعبد الرحمن دولة مرهوبة الجانب بعد أن تسلمها وهى فى أنياب الفوضى ، ولا نزاع فى أنه لولا همة أمراء قرطبة وثباتهم وجلدهم لأسرع الانحلال إلى حكم المسلمين فى الأندلس ، ولترك الأمراء المسيحيون بها ما كان بينهم من خلاف وحروب داخلية ليضربوا الغزاة الأجانب الضربة القاضية ، ويجلوهم عن بلادهم . وابن حيان يقف فى كتابه موقفاً عدائياً من الثائرين على الأمير الأموى . ولا يأنف من وصفهم بأقبح الصفات ، فهو كلما ذكر اسم الثائر المتمرد ابن حفصون أتبعه بقوله « الملعون والفاسق والمفارق للجماعة وموقد نور الفتنة والساعى لإطفاء نور الخلافة والضال المضلل للناس » وغير ذلك من الصفات التى يسبغها عليه وعلى أمثاله من الثائرين فى سخاء عظيم .

وابن حيان من المؤرخين الذين يبذلون جهدهم فى تحرى الصدق وقول الحق ، ولكنه رجل صارم يبغض الفوضى ، ويقدر عواقب الأمور ، ولذا لا يستطيع أن يقف موقف المؤرخ المحايد من الثائرين المتمردين الذين كانوا يضعفون بأعمالهم السلطة المركزية الرئيسية من أجل مطامعهم الشخصية ، وحزازاتهم وشهواتهم ، وأهوائهم ومآربهم ، ويشيعون الفوضى ، ويعرضون ملك المسلمين فى الأندلس للانحلال والضياع ، كما حدث بعد أن سقطت الخلافة ، وتفرقت الوحدة ، وتعدد الحكام والأمراء .

فابن حيان إذاً يكتب التاريخ من وجهة نظر الانتصار للخلافة الأموية ، والوقوف فى جانب أمرائها والدفاع عن سياستهم ، ولكنه مع ذلك أوسع أفقاً ،

وأكثر أمانة وأشد احتراما للحق من أن يكيل لهم المدح جزافاً ، ويخلع عليهم أبراد الثناء بلا حساب ، وقد عدد فى هذا المجد الثالث من كتابه مناقب الأمير عبد الله ، وأبدع فى وصفها ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وأضاف إلى ذلك ذكر عيوبه ونقائصه ، وأحصى عليه أخطاءه وجرائمه ، وحدثنا عن بخله وشحه وإسراعه إلى سفك الدماء إلى حد أنه قتل ابنيه بالسيف واحداً بعد الآخر محمداً والد الخليفة الناصر لدين الله وأخاه عدوه المطرف ، ثم قتل أخوين له معا ، قتل أخاه هشاما بالسيف وأخاه القاسم بالسهم ، وقد ذكر ابن حزم عن الأمير عبد الله أنه كان قتالا تهون عليه الدماء ، وأنه احتال على أخيه المنذر بن محمد سلفه فى الإمارة على إيثاره له وواطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذى فصد به وهو نازل بمعسكره على ابن حفصون .

وكتاب ابن حيان عرض دقيق لحياة الأمير عبد الله ، ووصف للنواحى الخيرة والنواحى الشريرة من أخلاقه ، ووصف لحياة الثائرين فى عصره وموقفه منهم وموقفهم منه ، وكيف كان يحاربهم ويهادنهم ، ويحاسنهم ويخاشنهم ، ووصف لمجالسه الأدبية ومظاهر علمه وثقافته ، ولا أعرف مؤرخاً من مؤرخى المشارقة يقوم لابن حيان فى قوة التصوير وبراعة التلوين مع الأصالة والطرافة ، وهو فى قوة تصويره وصرامته واستمساكه بالموازين الأخلاقية يذكرنى بالمؤرخ الرومانى العظيم تاسيتوس .

والكتاب الثانى الذى تقوم عليه شهرته هو كتاب « المتين » وهو فى ستين جزءاً ، وهو ثمرة نضجه ، وخلاصة معارفه وأدبه ، ومعرض علمه وفنه ، ولكنه من الذخائر المفقودة ، والشذرات التى حفظها لنا منه ابن بسام فى كتاب الذخيرة كافية فى الدلالة على نفاسة هذا الكتاب ، وعلو قدر مؤلفه ، ورسوخ قدمه .

وصرامة ابن حيان فى أحكامه وصراحته فى وصف أخلاق الرجال — وهو يشبه أبا حيان التوحيدى فى هذه الناحية شبها يستدعى النظر ويسترعى الملاحظة — جعلت أحد معاصريه يقول عنه بعد موته « رأيته فى النوم بعد وفاته مقبلا إلى

فقمت إليه، وسلم على وتبسم فى سلامه، فقلت « ما فعل الله بك ؟ » فقال « غفر لى » فقلت « فالتاريخ الذى صنفته ندمت عليه ؟ » فقال « أما والله لقد ندمت عليه ، إلا أن الله عز وجل بلطفه أقالنى وعفا عنى وغفر لى » وهو حلم يفسر الواقع ، فتقرير المؤرخ للحق قد يغضب الناس ويسوؤهم ، ولكنه يرضى الله فيغفر لقائل الحق ما يعتبره البشر ذنبا يؤخذ به ويحاسب عليه .

ولم يقتصر التشابه بين ابن حيان الأندلسى وأبى حيان التوحيدى على الاسم والكنية وجزالة الأسلوب وبراعته وإشراقه ، فقد كان كلا الرجلين من أقدر خلق الله على الثلب والهجاء ، وتصوير العيوب والنقائص ، ونقد الرجال نقداً لاذعاً موجعاً ، فى تصوير بارع ، وبيان شائق خلاب ، ورأى ياقوت الحموى فى أبى حيان التوحيدى السابق ذكره يشبه رأى ابن بسام صاحب الذخيرة فى ابن حيان الأندلسى فهو يقول عنه [1] « ولما تحدث فى تاريخه فى ملوك الطوائف بأفقنا استشرفت طائفة منهم إلى مطالعة غرره ، وعدوه من فرص العمر وغرره ، واهتزوا لقطف زهره ، واستهدوه إياه ، وأجزلوا على ذلك قراه ، وأن تسمع بالمعيدى لاأن تراه ؛ ليس بعشك فادرجى ولا كرامة ، لأنه وإن كان فيما قرع من هذا الباب قد مرى سحابه فصاب ، فإنه أخطأ التوفيق وما أصاب ، إذ جاء أكثر كلامه كما قال ابن الرومى :

مهما تقل فسهام منك مرسلة وفوك قوسك والأعراض أغراض
وما تكلمت إلا قلت فاحشة كان فكيك الأعراض مقراض

ومن علم أن كلامه من عمله ، أقل إلا فيما ينفعه ، ومن اعتقد أنه مسئول عما يقول ويكتب عليه ما يكتب ، لم يستفرغ المجهود فى القول فضلا عن أن يثلب ، ولله در القائل :

فلا تكتب بكفك غير شىء يسرك فى القيامة أن تراه

---

(١) الذخيرة لابن بسام القسم الأول من الجزء الثانى صفحة ٨٤ .

ومع ذلك فقد كان سهماً لا ينمى رميه ، وبحراً لا ينكش آذيه ، لو ثلب الماء ما نقع ، أو تعرض لابن ذكاء ماسطع ، يتناول الأحساب قد رسخت فى التخوم ، وأنافت على النجوم ، فيضع منارها ، ويطمس أنوارها ، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد ، وأمكن من عذر الطبيب عند العود ، فرب شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مر فى كتابه بفصل جرده لوضع حسبه ، وخلده أحدوثة باقية فى عقبه ، فيرده ورود الظمآن الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » .

وقد تراءى شبح أبى حيان التوحيدى لأحد شيوخ عصره الناقمين عليه فسأله « ماذا فعل الله بك ؟ » فأجابه أبو حيان إجابة هى فى جوهرها إجابة ابن حيان الأندلسى لمعاصره الذى رآه فى الحلم « غفر الله لى على رغم أنفك ! » .

ولست من هؤلاء الذين يشغلون أنفسهم كثيراً بتفسير الأحلام وتأويلها ، ولكنى أكاد أستبين من وراء هذين الحلمين الأثر الذى تركه هذان الرجلان فى نفوس معاصريهما ، كان معاصروهما يمقتونهما لما طبعا عليه من صراحة وصرامة اقتربت من حدود الجفوة والخشونة ، ولكنهم مع ذلك كانوا يشعرون بأنهما فى جانب الحق ، وأنهما أبيا أن يسيرا فى موكب النفاق والباطل والزور ولذا غفر الله لهما .

وقد كانت الشدة فى إصدار الأحكام جزءاً من طبيعة ابن حيان ، واضطراب العصر الذى عاش فيه ، وامتلاؤه بالفتن والثورات مما زاد هذه الطبيعة حدة وتوتراً. وقد اقترنت هذه الشدة بموهبته من حيث هو مؤرخ مطبوع ، ومن أقواله عن نفسه فى رقعة اختارها ابن بسام من كلامه قوله(١) « وبعد فإنى امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر واقتفاء هذا الأثر ، أحرس شارده ، وأقيد نافره ، وأبيت بأبوابه ، وأنصب لطلابه ، فشغلت به دهراً ، وفجرت منه نهراً ، صيرنى ترباً لعدنان ، وزماماً على الحدثان ، أقص أنباءه ، وأضرب أمثاله ، وأحصى وقائعه ،

---

(١) الذخيرة القسم الأول من المجلد الثانى صفحة ٨٦ .

واحترز مواعظه ، وانسأ تني المدة إلى أن لحقت بيدى منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة ، المغرقة للجماعة ، الهادمة للملكية المؤثلة ، المغربة الشأو على جميع مامضى من الفتن الإسلامية ، ففاضت أهوالها تعاظما أذهلني عن تقييدها ، ووهمنى ألا مخلص منها ، فعطلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها ، نفس الخناق ، وبلل الرماق ، فاستأنفت من يومئذ تقييد ما استقبلته من أحداثها ، فانعمت البحث عن ذلك عند من بقى يومئذ من أهل العلم والأدب لدينا ، فلم أظفر منه إلا بما لاقدر له ، لزهد من قبلنا قديماً وحديثاً فى هذا الفن ، ونفيهم له عن أنواع العلم ، وانثنيت خائباً خجلا ألوم نفسى على التقصير ، وأحدوها بالأمل ، وأعذر من قال « هممت ولم أفعل » وشرعت فى التفنيد غب ذلك التفنيد ، غير مخل به ، ووصلت القول فيما فاتنى قبل من ذكر انبعاث تلك الفتـــنة ، وأخبار ملوكها ومشهور حروبها مما أصبت به عندى تذكرة ، أو أخذته عن ثقة أو وصلتنى به مشاهدة أو حاشته إلى مذاكرة ، حتى نظمت أخبارها إلى وقتى مكملة ، وجئت بها على وجوهها ، وأوردتها على سبوغها ، ناشراً مطاويها ، ومعلنا بخوافيها ، غير محاب ولا خائف فى الصدق عليها ، سالـكا سبيل من ائتسيت به من مستأخرى أصحاب التاريخ بالمشرق » .

ومن كلامه عن زاوى بن زيرى بن مناد أحد كبار زعماء البربر حينما بلغه نعيه « نعى إلينا عدو نفسه موقد الفتنة بعد الدولة العامرية ، وورد النبأ بمهلكه فى القيروان وطنه ، بعد منصرفه إليها خاملا مغموراً بين أعاظم قومه ، لم يرتفع له ذكر بينهم ، مهلكه كان ، زعموا ، من طاعونة أصابته ، فالحمد لله المنفرد بإهلاكه الكفيل بقصاصه ، فلقد كان فى الظلم والجور ، والاستحلال للمحارم والقسوة آية من آيات الله ، أهان الله مثواه ولا قدس صداه » ومن وصفه لأحد الناس وقد طوى ابن بسام ذكر اسمه « كان غليظ الطبع ، خشن الجانب ، وخيم الخيم ، فدماجهم اللقاء ، يعتريه ضجر يخل به ، قلما ينجو الخصم منه من بادرة ، له فى ذلك أخبار شائعة » ومن وصفه لرجل آخر « نعى إلينا فلان وكان مع ثروته مضاع الجار ،

بمطول الغريم ، عانت الصديق ، مقدما فى صدور الأمثال ببسطة الرزق، على ضيق الباع فى العلم والفضل ، والاتساع فى الجهل » وقدعلق ابن بسام على بعض ما اختاره من كلمات بن حيان فى وصف أخلاق بعض معاصريه بقوله(١) «وكان عندهم بقرطبة خاتمة المتكلمين وجمهور المحسنين على ما تراه ركب من أثم ، واحتقب من ظلم ، وتناول من عرض ، وأطبق من سماء على أرض ، عجباً بافتنانه وتعجباً من بيانه وتنبيها على مشهور إحسانه ، وأكثر ما وجدت من كلام هذا الشيخ الباقعة فى هذا الباب ، أعنى الذم » وابن بسام بهذا الكلام يثير مسألة هامة قد اختلفت فيها الآراء ، وهى مسألة هل يكتفى المؤرخ بتقرير الواقع بعد أن يبذل غاية جهده فى البحث والتحرى دون إصدار أى حكم أو من حقه أن يزن الأفعال والأقوال ، ويصدر الأحكام النهائية ؟ والفريق الذى ينكر على المؤرخ إصدار الأحكام يرى أن الإنسان مسئول أمام الله وحده الذى يعلم خفايا الصدور ومضمر النيات وليس أمام المؤرخين مهما يكن مبلغ علمهم وسعة إحاطتهم وسداد حكمتهم ، وبعض الناس يرى أن نقد الاخلاق وذكر العيوب والمثالب نوع من أنواع الاغتياب والسباب غير جائز ، ويرى فريق آخر — كما ورد فى كتاب السخاوى(٢) — « أنه ليس الأمر فيه كذلك بل فيه فوائد عديدة منها الاعتبار بأحوالهم والوثوق بفضائلهم والتحذير من رذائلهم إلى غير ذلك » ولا نزاع فى أن الافتراء على الناس والوقيعة فيهم من الأمور المكروهة ، ولكن تحليل الأخلاق وتشريح الأعمال والأقوال ووزن الرجال مع تحرى العدالة والإنصاف هل هو كذلك من قبيل الغيبة المذمومة واغتصاب صفة الديان من الله العلى القدير ؟ المسألة فيها نظر وا كتفى بهذه الاشارات .

---

(١) الذخيرة القسم الأول من المجلد الثانى صفحة ١١٣ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوى صفحة ٥٨ .

الإمام بن حزم أو المؤرخ المحب

كان الحاجب المنصور بن أبي عامر من كبار الغزاة فى تاريخ الإسلام ، وفى طليعة رجال الأندلس المعدودين ، وحماتها الذائدين عنها ، المدافعين عن بيضتها ، والمنصرفين إلى تأييد ملك المسلمين بها ، وتثبيت أركانه . وما أحسب فى ذلك شكا ولا خلافاً . ولكن هذا الفاتح القهار ، والغازى الظافر ، والبطل النجد قد تورط فى خطأ أملته عليه إملاء ، وفرضته عليه فرضاً ، ودفعته إليه دفعاً ، طبيعة موقفه التاريخى من ناحية ، وطموحه ومطامعه من ناحية أخرى ، فقد استطاع بحذقه ولباقته ودهائه وسياسته أن يشق الطريق إلى الاستئثار بالسلطة والنفوذ ، ويحجر على الخليفة الشرعى هشام الثانى ، ويلغى وجوده . ويستبد بالأمر دونه ، وقضى على المنافسين ، وأزالهم من طريقه بأساليب ماكرة قاسية ، وحقق بذلك الكثير من أهدافه ، ولكنه أضعف فكرة السلطة الشرعية ، وأزال هيبتها من النفوس ، وجعل الاجتراء عليها والاستخفاف بحقوقها أمراً ميسوراً غير مستنكر . فلما مضى لسبيله ، وعجز الذين جاءوا بعده عن أن يسدوا مسده ويقوموا مقامه ، ساءت الأحوال ، واضطربت الأمور ، واستشرى الفساد ، وإذا ضعفت المبادىء ، وعجزت الرجال ، وقلت الكفايات ، فغير غريب أن تعم الفوضى ، ويسود الظلام ، وتنطلق الشهوات من عقالها ، وتتحرك المطامع والأهواء ، وتكثر عوامل الهدم والتدمير والإبادة والخراب .

والمؤرخ الذى يطالع أخبار هذه الفترة المحزنة الشاحبة فى تاريخ الأندلس يهوله ما يشاهد فيها من انتكاس الأخلاق ، وفساد الطبائع ، والتواء النفوس ، ومشاهد الغدر ، والخسة والنقص ، والقسوة والنذالة ، حتى يكاد يسوء ظنه فى السواد الأعظم كما يقول أبو تمام فى بيته المشهور :

إن شئت أن يسود ظنك كله   فأجله فى هذا السواد الأعظم

ومثل هذا المؤرخ لا بد أن يستروح ويستشعر شيئاً من السرور والطمأنينة ، ويعاوده جانب من الثقة بالنفس البشرية حينما يواجه فى ذلك العصر المعتل شخصية عفة نبيلة قويه صريحة سامية محلقة مثل شخصية الإمام أبى محمد على ابن حزم العالم الفقيه الذى ملأ طباق الأرض علماً ، والفيلسوف المتأله الذى اشتهر بقوة الجنان ، وحدة اللسان ، حتى قيل فيه « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفى شقيقين » .

هذا الإمام الجاد الصارم الذى يقول فيه ابن حيان نابغة مؤرخى الأندلس وشيخهم «(١) إنه حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة فى كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة » قد أخرج للناس كتاباً فى وصف الحب ودراسة أطواره ، وتحليل عوارضه وأحواله يعد من الآثار البارزة فى تراثنا الأدبى ، ومن حقنا أن نفخر به ، ونعتز بأن من بين مفكرينا الكبار وفقهائنا الأعلام من وجد الحب جديراً بالدرس ، خليقاً بالبحث والتحليل ، فقد كان معظم الفلاسفة والمفكرين من عهد الفلسفة اليونانية إلى القرن التاسع عشر يرون الحب من المسائل التى لا يصح لهم أن ينزلوا من عليائهم إلى الكلام عنها ، وتناولها بالملاحظة والدرس والتحليل ، ولعل أول من خالف هذا التقليد ، وشذ عن تلك السنة من بين هؤلاء الفلاسفة هو الفيلسوف الألمانى اللامع الجرىء آرثر شوبنهاور ، فقد خص الحب بفصل شائق حافل من كتابه الشائق العظيم المسمى « الدنيا فكرة وإرادة » وتبعه فى ذلك تلميذه ومتقيل آثاره الفيلسوف إدوارد فون هارتمان . فقد عقد فى كتابه القيم «فلسفة اللاشعورى» فصلا بديعاً عميقاً عن الحب الجنسى اقتفى فيه آثار شوبنهاور وأربى عليه ببعض الملاحظات النافذة والتحليلات الموفقة ، وأكبر ظنى أن هذين الفيلسوفين الجليلين قد مهدا السبيل وأنارا الطريق لبحوث العلامة النفسى الكبير فرويد الذى جعل الحب الجنسى حجر الزاوية فى بحوثه وفلسفته .

---

(١) الذخيرة القسم الأول من المجلد الأول من صفحة ١٤٠ .

وكتاب « طوق الحمامة » الذى كتبه ابن حزم ليس كتاباً عن الحب فحسب ، وإنما هو كذلك كتاب اعترافات أو ترجمة ذاتية للعلامة ابن حزم ، فقد ذكر لنا فيه الكثير من أحاديث نفسه ودخائلها وخفاياها . وما انتابها من أزمات وألم بها من شدائد ، وما هزها وهالها من حوادث ووقائع ، ومن خلال وصفه لنفسه وتحدثه عن نوازع قلبه استطاع أن يشرف بنا على عصره ، ويقدم لنا وثيقة نادرة عن أحواله وآدابه ، وأخبار رجاله ونسائه قل أن نعثر على مثلها فى مراجع الأدب والتاريخ .

ويكشف لنا هذا الكتاب النادر عن صفاء نفس ابن حزم ، ورهافة حسه ، ورقة شعوره ، وقوة عواطفه ، وعمقها وصدقها ، ومتانة عقيدته ، ومضاء إرادته . ونستطيع أن نتبين منه لماذا كان هذا الرجل العظيم القلب والعقل وزيراً يعتمد عليه فى علاج المشكلات ، ومؤلفاً من أغزر المؤلفين إنتاجا فى تاريخ التـــأليف الإسلامى ، وفقيهاً إماماً ومناضلا ثابتاً فى نضاله ، لا تلين قناته ، ولا تصدع صفاته ، ولم يكن الإمام بن حزم محبا عميق الحب مشبوب العاطفة فحسب ، وإنما كان كذلك صديقا صحيح الود ، صادق العهد ،جديراً بقول المتنبى .

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبى ... لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

وقد ألف هذا الكتاب استجابة لدعوة صديق كان على ما يظهر من أعز أصدقائه عليه وآثرهم لديه ، وأشار إلى ذلك فى المقدمة بقوله :(١) وكلفتنى أعزك الله أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه ، وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله ، على سبيل الحقيقة ، لا متزيداً ولا متفننا ، لكن مورداً لما يحضرنى على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى ، وسعة باعى ، فيما أذكره ، فبادرت إلى مرغوبك ، ولولا الإيجاب لما تكلفته . فالأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غداً ، والذى كلفتنى

---

(١) طوق الحمامة طبع مكتبة عرفه بدمشق صفحة ٢ .

فلا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتى وأدركته عنايتى ، وحدثنى به الثقات من أهل زمنى ، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ، ولا أتحلى بحلى مستعار » .

وقد التزم ابن حزم فى كتابه هـذه الحدود ، واقتصر على ذكر مشاهداته وتجاربه ، وما سمعه ممن يوثق به من أصحابه ، ولم يجعل الكتاب معرضاً لأخبار العشاق المتداولة ، وقصصهم المألوفة ، كما صنع غيره من الذين تصدوا للتأليف فى هذا الموضوع ، مثل داود الأنطاكى فى كتاب « تزيين الأسواق فى أخبار العشاق » وغيره من مؤلفى الكتب الذين يعمـدون إلى جمع الأخبار ، وجيد الأشعار ، بغير تفريق ولا تمييز ، ولا تحليل ولا تعليل . أما ابن حزم فليست هذه طريقته ، وله من شخصيته الممتازة وتجاربه المستفيضة ومشاهداته الكثيرة ما ينأى به عن هذا السبيل المطروق ، ويجنبه هذه الخطة المبتذلة .

وقد وقف ابن حزم الفصل الأول من كتابه للكلام عن « ماهية الحب » والحب عنده لا تدرك ماهيته بالفكر وإنما تدرك بالتجربة ، وهو يقول فى ذلك « الحب(١) أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، ولعله قد نظر فى ذلك إلى قول المتنبى .

إلام طماعيـة العـاذل ولا رأى فى الحب للعاقل

وقوله :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضا نظرت وخلت أنى أسلم

ويذهب ابن حزم إلى أن الحب (٢) « اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، فما تناسب من النفوس اتصل ، وماتخالف

---

(١) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٤ .

(٢) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٥ .

منها انفصل ، فسر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل يستدعى شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ، فالمجانسة عند ابن حزم عمل محسوس ، وتأثير مشاهد ، والتنافر فى الأضداد ، والموافقة فى الأنداد ، ويؤيد ذلك ابن حزم بقوله : « لو كانت علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة ، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ، ويعلم فضل غيره ، ولا يجد لقلبه محيداً عنه ، ولو كان الموافقة فى الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه » .

فالحب إذاً استحسان روحانى وامتزاج نفسانى ، ويروى لنا ابن حزم[1] أن أبقراط أغتم حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له فى ذلك فقال « ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه » .

ويعتقد ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهد وتأكد الألفة . ولا يكتم شكه فى مسألة الحب من أول نظرة ، وهو يقول فى ذلك(٢) « إنى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون فى ظنى متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً فى حجاب القلب فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى دهراً ، وأخذى معه فى كل جد وهزل ، وكذلك أنا فى السلو والتوق . فما نسيت وداً لى قط ، وإن حنينى إلى كل عهد تقدم ليغصنى بالطعام ويشرقنى بالماء ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته ، وما مللت شيئاً قط بعد معرفتى به ، ولا أسرعت إلى الأنس بشىء قط أول لقائى له ، وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت ، لا أقول فى الآلاف والأخوان وحدهم لكن فى كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك ، وما انتفعت بعيش ولا فارقنى الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجى

---

(١) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٨ .

(٢) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٢٢ .

يعتادني ، وولوع هم ما ينفك يطرقني ، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش استأنفه وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو » .

وعند ابن حزم أن هـذا الحب الصادق الذي يسير على مهل ويتولد بطول الامتزاج يلائم رأيه في أن الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العلوي ، وأن ما يقع من أول وهلة إنما هو مجرد استحسان جسدي .

وقد عقـد في كتابه فصلا عنوانه أن من أحب صفة في محبوبه لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها ، وبعد أن روى أمثلة تعزز ذلك مستمدة من مشاهداته ومعلوماته شفعها بقوله « (١) وعني أخبرك أنني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه ، وإني لأجد هـذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت لا تؤاتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره البتة ، وهـذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنـه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله ، وأما جماعة خلفاء بني مروان رحمهم الله ولا سيما ولد الناصر منهم فـكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة لا يختلف في ذلك منهم مختلف ، وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة النـاصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر نزاعاً إلى أمهاتهم حتى قد صار ذلك فيهم خلقة ، حاشى سليمان الظافر رحمه الله فإني رأيته أسود اللمة واللحية ، وأما الناصر والحـكم المستنصر رضي الله عنهما فحدثني الوزير أبي رحمـه الله وغيره أنهما كانا أشقرين أشهبين ، وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرحمن المرتضى رحمهم الله فإني قد رأيتهم مراراً ودخلت عليهم فرأيتهم شقراً شهلا ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم فلا أدري أذلك استحسان مركب في جميعهم أم لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فجروا عليها ، وهذا ظاهر في شعر عبد الملك بن مروان بن عبـد الرحمن ابن مروان بن أمير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطليق وكان أشعر أهل

---

(١) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٢٥ .

الأندلس فى زمانهم وأكثر تغزله فبالشقر ، وقد رأيته وجالسته ، فإمامنا العلامة كان من الذين يحبون الشقراوات ، وكذلك كان المرحوم والده ، ونلاحظ هنا طريقة ابن حزم ، فهو يصف العارض من عوارض الحب ثم يستدل عليه بالشواهد ويؤيده بتجربته الخاصة .

وفى الفصل الذى يتكلم فيه عن « البين » يقول (١) «دعنى أخبرك أنى أحد من دهى بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لى كانت فيما خلا اسمها نعم ، وكانت أمنية المتمنى وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لى ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدار ، واخترمتها الليالى ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسنى حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ، ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها ، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وببعض أعضاء جسمى العزيزة على مسارعاً طائعاً ، وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها . ولقد عفى حبى لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده ومما قلت فيها :

مهذبة بيضاء كالشمس إن بدت ... وسائر ربات الحجال نجوم
أطار هواها القلب عن مستقره ... فبعد وقوع ظل وهو يحوم

وفى الكلام عن الهجر يقول لنا هذا العالم المجرب والحكيم الطبن الذى عرف الدنيا وخبر الناس وذاق الحلو والمر(٢) «لقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك . فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء وانبساط مدبرى الدول فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه ، وصحة

---

(١) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٨٨ .

(٢) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٦٧ .

مودته له ، وحضرت مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدى محبوب غضبان قد غمره السخط ، وغلب عليه الجفاء ، ولقد امتحنت الأمرين، وكنت فى الحالة الأولى أشد من الحديد،وأنفذ من السيف،لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع ، وفى الثانية أذل من الرداء وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع ، وأتحلل بلسانى، وأغوص على دقائق المعانى ببيانى ، وأفنن القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضى».

ويشير ابن حزم إلى ما حل بديار قومه فى خلال الاضطرابات والهزاهز والنكبات التى حلت بقرطبة فيقول(١) « ولقد أخبر بعض الوراد من قرطبة وقد استخبرته عنها أنه رأى دورنا ببلاط مغيث فى الجانب الغربى منها وقد امحت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى موحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن ، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية ، تبدد شملهم فى البلاد فصاروا أيدى سبا ، فكأن تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المزينة التى كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها حين شملها الخراب ، وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد فى طلبها بعد أن طال ما زهدت فى تركها ... وقد أبكى ذلك عينى وأوجع قلبى ، وقرع صفاة كبدى ، وزاد فى بلاء لى » .

ويصف ابن حزم طبيعته فيقول(٢) «وعنى أخبرك أنى جبلت على طبيعتين لايهنئنى معهما عيش أبداً وإنى لأبرم بحياتى باجتماعهما ، وأود التثبت من نفسى

---

(١) طوق الحمامة طبع دمشق صفحة ٩١ .

(٢) طوق الحمامة طبع دمشق صفحة ١١٤ .

أحيانا لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما وهما : وفاء لا يشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر ، تولده الألفة التى لم تعزف بها نفسى عما دريته ، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته ، وعزة نفس لا تقر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة للموت عليه ، فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإنى لأجفى فاحتمل ، واستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذى لا يكاد يطيقه أحـــد ، فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسى ، تصبرت ، وفى القلب ما فيه » .

وموجز القول أن لابن حزم فى كتاب طوق الحمامة ـ وهو من قبيل التراجم الذاتية فى الأدب العربى ـ نظرات فلسفية قيمة ، وتحليلات نفسية ثمينة ، وأخباراً تاريخية ممتعة ، وخبرة بالناس والحياة واسعة شاملة ، مع السرد السهل ، والعرض الشائق ، وقد يسر ذلك لابن حزم ثقافته العالية ، ونشأته الأرستقراطية ، وقوة عقله وعواطفه وأحاسيسه ، وكثرة تجاربه ومشاهداته .

الفتح بن خاقان أو المؤرخ الفنان

سبق أن أوضحت أنه بعد ظهور الإسلام فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى وتتابع الفتوح الإسلامية بسرعة لم يسبق لها نظير فى التاريخ شغل المسلمون بغزواتهم المظفرة عن تدوين الأخبار ، وأنه لما استقر المسلمون فى الأمصار التى بسطوا عليها سلطانهم وهدأت حركة الفتح والغزو ، ظهر الأخباريون والرواة والمؤرخون ، وأنه لم يكن عند العرب مؤلفات تاريخية ، ولا مدونات للحوادث والكوائن قبل عهد النبى مأثورة معروفة ، وأنه لما كان النبى العظيم هو باعث النهضة ومحركها الأول فن الطبيعى والمعقول أن تكون سيرته وأحاديثه ومواقفه هى أول موضوع للتاريخ الإسلامى ، وأن يتبع ذلك فى الأهمية تاريخ صحابته الأوفياء والذين حاربوا تحت لوائه واستشهدوا فى سبيل دعوته .

وقد ظلت أخبار هذه السيرة العطرة والمواقف المشرفة الجليلة تروى بالسماع والرواية فى أغلب الحالات قرابة قرن حتى تكاثرت الروايات وازدحمت وأصبحت عبئا تنوء تحته الذاكرة ، ويكاد يعجز الرواة والحفاظ ، وخيف عليها من الضياع والتشتت والتحريف والتبديل ، فبدأ تسجيلها وتدوينها ، وكان ذلك فى أواخر العهد الأموى ، وقد قويت الحركة وظهرت آثارها جلية واضحة فى العصر العباسى الأول .

وبطبيعة الحال نشأ التاريخ المكتوب من الروايات المسموعة ، والأخبار المرددة المتناقلة ، وبذل الحفاظ جهداً مشكوراً على قدر ماتستطيعه الطاقة البشرية فى تحرى صحة الأخبار ، والاعتماد على الذين شاهدوا الحوادث بأنفسهم ، أوسمعوا أخبارها ممن حضروها ، وكان الحافظ ينقل الإسناد ليدل على صحة روايته ، والإسناد هو ذكر سلسلة متتابعة من الأشخاص الذين تناقلوا الخبر عن منبعه الأصلى قبل أن ينحدر إليه ويبلغ سمعه .

واعتماد مؤرخي الإسلام على الرواية والإسناد كان يجعل لرأي الشاهد الأول قيمة كبيرة ، لأن روايته هي الأساس الذي يقوم عليه الإسناد من ناحية ، وتحقيق المؤرخ من ناحية أخرى ، ولذلك استلزم الأمر مزيد العناية بتعرف أخبار هؤلاء الرجال وتحري سيرهم وأخلاقهم ، ونزعاتهم الفكرية ، واستأثر ذلك بنصيب كبير من جهد المؤرخين ، وهذا هو الأصل في ظهور كتب الطبقات ، وأسبقها كما هو معروف طبقات ابن سعد .

وقد سار المؤرخون المختلفون على غرارها فظهرت طبقات الشعراء وطبقات الأطباء وطبقات النحاة وتواريخ الأعيان ، وهي تتناول تاريخ الرجال الذين امتازوا وبرزوا في أية ناحية من نواحي الحياة الدينية أو الأدبية أو السياسة ، وتعرفنا بهم ، وتلخص لنا أعمالهم وأخبارهم ، وتتفاوت هذه الكتب في الإجادة والإتقان ، والتحقيق والتدقيق ؛ ومن الكتب التي صيغت على هذا المثال ، واتجهت في هذا الاتجاه كتاب قلائد العقيان وكتاب « مطمح الأنفس » للأديب الأندلسي المعروف والكاتب المنشيء القدير أبي نصر الفتح بن محمد الذي عرف في تاريخ الأدب باسم « الفتح بن خاقان » .

والمعروف عن نسب الفتح هو أنه الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي ويكنى أبا نصر ، وقد اشتهر بابن خاقان ، وخاقان فيما أعلم لفظة تركية معناها الملك ، فمن أين جاءت الفتح هذه الخاقانية التي قد توجد شيئاً من اللبس بينه وبين الفتح بن خاقان وزير الخليفة العباسي المتوكل وصفيه الذي قتل معه ؟ وقد كان الفتح وزير المتوكل تركي النجار ، أما الفتح الأندلسي العربي الأصل فالظاهر أن نسبة الخاقانية إليه كانت من قبيل التنقص له والزراية به ، كما[1] يستخلص من كلام مؤرخي المغرب والأندلس عنه .

(١) نفح الطيب الجزء ٩ صفحة ٢٤٢ .

وقد نشأ الفتح فى قرية من قرى الأندلس تعرف بقلعة الولد من قرى يحصب وهى فى إقليم غرناطة ، ومن شيوخه وأساتذته(١) أبو بكر بن القصيرة وأبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة وأبو محمد بن عبدون وابن دريد الكاتب وغيرهم .

وقد أجمع نقاد الأدب فى الأندلس والمغرب على أنه كان كاتباً بليغاً عذب الألفاظ ، لعوباً بأطراف الكلام ، قديراً فى الوصف ، حتى قال بعض من عرفه (٣) « إنه أراد أن يفضح الشعراء الذين ذكرهم فى كتبه بنثره سامحه الله »وهو أحد من اعتمد عليهم المقرى فى كتابه المشهور « نفح الطيب » ونقل عنه كثيراً ، ومن أقواله عنه(٣) « وهو يشيد قصور الشرف إذا مدح ، ويهدم معاقلها إذا هجا وقدح » .

وقد كان الفتح معاصراً لابن بسام صاحب الذخيرة ، ويروى المقرى عن الحجارى فى المسهب قوله فى الفتح(٤) « الدهر من رواة قلائده وحملة فرائده ، طلع من الأفق الإشبيلى شمساً طبق الآفاق ضياؤها . وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها » ويعقد الحجارى موازنة بينه وبين ابن بسام فيقول « الفتح وأبو الحسن ابن بسام الشنترى مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان . وكلاهما قس وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً وعلما مفيداً ، وإطناباً فى الأخبار ، وإمتاعا للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتعشقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به مما عرف من أجله بابن خاقان لكان أحد كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المستولى على الرهان ، وإنما أخل به ماذكرناه ، مع كونه اشتهر بذم الأحساب ، والتمرين بالطعن على الأدباء والكتاب » وأحسبها موازنة دقيقة صحيحة على إيجازها ، والواقع أن ابن بسام أكثر موضوعية ، وأقرب إلى الطريقة العلمية ، وأدق وأوفى ، وأنزه وأسمى ، والفتح أكثر

---

(١) نفح الطيب الجزء ٩ ص ٢٤٢ .

(٢) نفح الطيب الجزء ٥ صفحة ٣٥٦ .

(٣) نفح الطيب الجزء ٥ صفحة ٣٥٩ .

(٤) نفح الطيب الجزء ٩ صفحة ٢٤٥ .

ذاتية وتشبعاً بالروح الأدبية ، وقد كان يتكسب بأدبه ، ويخيف الناس بطول لسانه وقدرته فى الثلب والهجاء ، ويستدر بذلك أخلاف الرزق ، ويلتمس به العلاء والتبريز ، وهو أسلوب غير كريم ظلم به نفسه ، وأساء إلى أدبه . ولا نزاع فى أنه كان أديباً مطبوعا ، وكاتباً منشئاً قديراً ، وربما كان أحلى عبارة من ابن بسام وأوجز إشارة ، ومزاج ابن بسام أقرب إلى أمزجة العلماء والمفكرين ، وأما الفتح فأخلاقه تشبه أخلاق بعض الشعراء المنحرفين ، والذين ابتلاهم الله بالشذوذ ، والخروج على العرف المألوف من أصحاب الأمزجة الفنية ، والمعروف عنه أنه كان مجازفاً لا يمل المعاقرة والقصف حتى هان قدره على الناس ، وابتذلت نفسه ، وساء ذكره ، ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس إلا دخله مسترفداً أميره وأعيانه ، فإذا قصروا فى حقه ، ولم يؤدوا إليه الإتاوة ، أمضهم بهجائه وثلبه وبذاءة لسانه .

وعبارات الفتح مسجعة ، ولكن سجعه يكاد يكون ترسلا عادياً خالياً من وصمة التكلف ، بريئاً من التعقيد ، وسجعه يرضى الأذن ، ويسيغه الذوق ، ويدل على غزارة محصوله اللغوى ، وسعة اطلاعه فى تاريخ الأدب العربى وأيام العرب فى الجاهلية ، ولكنه على عذوبة ألفاظه وموسيقيتها وما يدل عليه من براعة فنية لا يحمل إلينا فكراً دقيقاً صائباً ، ولا رأياً جديداً ممحصاً ، ولا حقائق مؤكدة يمكن الرجوع إليها والاعتماد عليها ، ولا معلومات وثيقة يمكن الأخذ بها والوقوف عندها ، والواقع أن كتاب قلائد العقيان ، وهو أشهر ما كتب الفتح ، وعليه تقوم شهرته ، أقرب إلى المقامات فى حسن اختيـــار الألفاظ وتنسيقها ورصفها ، فقيمته فى جزالة أسلوبه ، ورصانة ألفاظه ، ولكننا لا نستطيع أن نثق بحقائقه التاريخية أو نطمئن إلى نزاهة حكمه على الاشخاص ، ووزنه لهم ، وتقديره لمواهبهم ، وهذا هو رأيى فى الروح الغالبة على الكتاب ، وأحب أن أستدرك فأقول إن بعض تراجم الفتح لا تخلو من تصوير بديع ، وأخبار شائقة . ومن هذا القبيل ما كتبه عن الحاجب جعفر بن محمد المصحفى والقاضى منذر بن سعيد البلوطى فى كتاب المطمح ، ويتخلل كتابيه — القلائد والمطمح — أخبار مسلية عن

مطارحات الشعراء والأدباء ومجالس لهوهم ، فإن للفتح ميلا خاصاً إلى الإكثار من ذكر مجالس الشراب وأخبار القصف والمجون ، ومن شعر الفتح قوله :

إلى أين ترقى قد علوت على البدر ... وقد نلت غايات السيادة والقدر
وجدت إلى أن ليس يدرك حاتم ... وأغنيت أهل الجدب عن سبل القطر
وكم رام أهل اللوم باللوم وقفه ... وبحرك مد لا يئول إلى جزر
ولو لم تكن فيك السماحة خلة ... لأثر ذاك اللوم فيك مع الدهر

ومما يروى عنه(١) أنه قصد يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض مخمراً ، فتنسم بعض حاضري المجلس رائحة الخمر فأعلم القاضي بذلك ، فاستثبته وحده جداً تاماً ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير وعمامة ، فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه « عزمت على إسقاط القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلائد العقيان » قال « فقلت له لا تفعل وهي نصيحة » فقال « وكيف ذلك ؟ » فقلت له « قصتك معه من الجائز أن تنسى ، وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه في العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك فيقال له ، فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر » قال فتبين الفتح ذلك وعلم صحته وأقر اسمه .

وقد رزق الفتح في هذه المرة — إن صحت هذه الرواية — صديقاً ناصحاً جنبه هذا المزاق ، ولكن من سوء حظه على ما يظهر أنه لم يكن دائماً إلى جنبه من يقدمون له مثل هذه النصيحة الثمينة ، فكان يغلبه هواه على علمه ، ويضل رأيه ، ويفسد عليه أمره . وقضيته مع الفيلسوف الأندلسي بن باجة تبين لنا كيف كان يركب هذا الرجل رأسه ، ويطاوع نزواته ، ويتجانف عن الحق ، ويتعمد التشويه والتضليل ، والاتجار بالإساءة والهجو ، دون أن يزعه ضمير حي أو يرده خلق

---

(١) نفح الطيب الجزء التاسع صفحة ٢٤١ .

كريم ، واسم ابن باجة أبو بكر محمد بن يحي بن الصائغ ، وقد حمل عليه الفتح في كتاب القلائد حملة شعواء ، وهجاه هجاء مراً ، وصوره في صورة قبيحة ، وبدأ الكلام عنه قائلا في أسجاعه المعهودة(١) «هو رمد جفن الدين ، وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سخفاً وجنوناً ، وهجر مفروضا ومسنوناً ، فما يتشرع ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ولا أظهر مخيلة إنابة ، ولا أقر بباريه ومصوره ، ولا فر عن تباريه في ميدان تهوره ، الإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم العليم ..... مع منشأ وخيم ، ولؤم أصل وخيم ، وصورة شوهها الله وقبحها ، وطلعة إذا أبصرها الكلب نبحها .... »

وبعد أن أطال الضرب على هذه النغمة ليؤكد في ذهن القارىء سوء عقيدة الرجل ، وراح يطعن في أصله ونشأته وأخلاقه وصورته ، اتهمه في أدبه بالإغارة على معاني الشعراء وأخذها من أربابها أخذ الغاصب ، ورماه بقلة العقل ونزارته والقذارة والوضارة ، وسوء السياسة ، ونقص الكياسة ، إلى آخر ما في الفصل الذي عقده للحديث عنه ، وختم به كتاب القلائد فكان ختامه غير مسك .

والرجل الذي تحامل عليه الفتح هذا التحامل القاسي ، وشن عليه هذه الغارة الشعواء ، ورماه بتلك الأوصاف المعيبة . هو الذي يقول فيه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة « إنه آخر فلاسفة الإسلام في الأندلس » والذي يقول عنه ابن طفيل الفيلسوف ومؤلف رسالة « حي بن يقظان » عند كلامه عن أضرابه من مفكري الأندلس وفلاسفتها(٢) « لم يكن فيهم أثقب ذهناً ولا أصح نظراً ، ولا أصدق روية من أبي بكر بن الصائغ ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن

---

(١) قلائد العقيان طبع مصر صفحة ٣١٣ .

(٢) رسالة حي بن يقظان طبع دار المعارف صفحة ٦٢ .

علمه وبث خفايا حكمته ، وكان إلى جانب ذلك له ملكة شعرية وشعر رقيق ، ومن(١) الحكايات المشهورة عنه أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى على بعض قيناته موشحته التى مطلعها .

جرر الذيل أيما جر وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك ، فلما ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبى بكر

ولما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطربا ، وشق ثيابه ، وقال « ما أحسن ما بدأت وما ختمت » ، وحلف بالأيمان المغلظة لا يمشى ابن باجة إلى داره إلا على الذهب ، نخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهباً فى نعله ومشى عليه .

وهناك روايتان فى سبب تحامل الفتح على ابن باجة ، تقول الرواية الأولى إنه لما عزم الفتح على تصنيف كتاب « قلائد العقيان » جعل يرسل إلى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر والبلاغة ويعرفه عزمه ويسأله إنفاذ شيء من شعره ونظمه ونثره ليذكره فى كتابه ، وكانوا يعرفون شره وثلبه فكانوا يخافونه وينفذون إليه ذلك وصرر الدنانير ، فكل من أرضته صلته أحسن فى كتابه وصفه وصفته ، وكل من تغافل عن بره هجاه وثلبه ، وكان ممن تصدى له وأرسل إليه أبو بكر بن باجة المعروف بابن الصائغ ، وكان وزير ابن تيفلويت صاحب سرقسطة وهو أحد الأعيان وأركان العلم والبيان شديد العناية بعلم الأوائل ، مستول على أهل الأشعار والرسائل ، وكانوا يشبهونه بالمغرب بابن سينا بالمشرق ، وله تصانيف فى المنطق وغيره ، فلما وصلته رسالته

---

(١) مقدمة ابن خلدون طبعة المطبعة الشرقية صفحة ٦٩١ والنفح الجزء التاسع صفحة ٢٢١ . ويقول الفتح فى القلائد صفحة ٣١٩ إن ممدوحه هو الأمير أبو بكر بن ابراهيم وهو الذى اتخذه وزيراً له وكذلك فى النفح صفحة ٢٤ الجزء التاسع .

تهاون بها ، ولم يعرها طرفه . ولا لوى نحوها عطفه ، وذكر ابن خاقان بسوء فعله فجعله ختم كتابه وصيره مقطع خطابه ، وقد غاظ الفتح إغفال ابن باجة لأمره وأحقده عليه فنفث سمه فى تلك الأسجاع البذيئة التى حاول بها أن ينال من ابن باجة ويشوه صورته ، فنال من نفسه أضعاف ما نال من ابن باجة .

والرواية الثانية تقول(١) إنهما كانا قد اجتمعا فى مجلس ، وأخذ الفتح يكثر من ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ، وأسهب فى وصف حلى ، وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون ، فلما مل ابن باجة حديث الفتح عن نفسه التفت إليه وقال له ساخراً مستهزئاً «فمن تلك الجواهر إذاً الزمردة التى على شاربيك» فحقدها الفتح ، وثلبه فى كتابه ، وأرجح الرواية الأولى لأنها تتفق مع ماعرف عن أخلاق ابن باجة من الحرص على المال والرغبة الشديدة فى جمعه واكتنازه والضن به ، والفتح فى شدة جشعه إلى المال ، والتماسه بكل الطرق والوسائل لم يكن يحز فى نفسه شىء ويثيره ويحقده مثل حرمانه من العطاء ، وحبس المال عنه ، ومهما يكن من الأمر فإن الروايات المختلفة تجمع على أن ابن باجة لما بلغه ما كتبه الفتح أنفذ له مالا استكفه به واستصلحه ، فلما صنف الفتح كتاب المطمح(٢) افتتحه بذكر ابن الصائغ وأثنى عليه فيه ثناء عطراً جميلا فقال « الوزير أبو بكر بن الصائغ بدر فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام به وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فنا وتهدل ، وعطل بالبرهان التقليد ، وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد ، إذا قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق . وإن طما بحر خاطره فهو لكل شىء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذى هو

---

(١) نفح الطيب الجزء ٩ صفحة ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) معجم الأدباء الجزء ١٦ صفحة ١٩٠ والنفح جزء ٩ صفحة ٢٣٦ وهو ينص على أن هذا المدح ورد فى بعض كتبه ، ونسخة المطمح التى بيدى خالية من ذكر ابن باجة ولعله ذكره فى نسختى المطمح الأخريين .

للإيمان شقيق ، والجد الذى يخلق العمر وهو مستجد ، واه أدب يود عطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشترى أن يعرفه ، ونظم تتمناه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور .. » وقد أتبع ذلك الكلام بإيراد مختارات من شعره . والمسألة هنا ليست مسألة ذكر الجوانب المختلفة من شخصية ابن باجة ، النواحى المتعارضة فى أدبه وتفكيره ، وأخلاقه وسيرته ، لأن الفتح لو كان حاول ذلك لما وقع فى التناقض ، ولوجد مجال القول ذا سعة . وإنما الواضح أن الرجل الذى كان فى رأى الفتح فاسد العقيدة ، ورمداً لجفن الدين قد أصبح هنا مؤمناً نازه النفس ، متصاونا يود عطارد أن يلتحف بأدبه إلى آخر هذا النوع من السجع الذى كان يجيده الفتح إجادة بارزة ممتازة ، ولم يصبح الرجل كذلك وتستحيل أحواله وصفاته من النقيض إلى النقيض إلا بعد أن دفع الثمن وأدى الجزية .

وعلى هذا النمط من الإسراف فى المدح أو المبالغة فى القدح يسير الفتح فى كتابيه القلائد والمطمح ، فهو لا يحاول أن يذكر موضع الإعجاب أو موضع المؤاخذة ويدلل على كليهما بالكلام المناسب والمنطق المتماسك ، ولا يحكم عقله وتفكيره ، وذوقه الأدبى المجرد من الأهواء ، وإنما يحكم عواطفه ونوازعه وأهواءه ومآربه ومصالحه ومراغبه ، والأسلوب المسجع بطبيعته وحكم تركيبه وبنائه قد لا يتسع لتقرير الحق ، ووصف الواقع ، فكيف إذا انساق الكاتب مع أهوائه ، وسيطرت عليه نزواته ، والفتح يجيد كما قدمت وصف مجالس الشراب وساعات اللهو والاستمتاع ، وربما كان ذلك عجيبا منه حين يترجم للفقهاء والقضاة ، والحياة فى نظر الفتح حانة خمر ومجلس لهو . والفتح فى ترصيعه للكلام وتنميقه للعبارات لا يتحرى الحق ، ولا يريد الصدق ، فهو فى الكتابة يعبث ويلهو ويتسلى ويلعب ، ولكنه فى عبثه ولهوه نمط خاص ، وطراز ممتاز ، يدل على قدرة فنية قد أسىء فى بعض الأحيان استعمالها ، وملكة كان يمكن أن يفيد منها الأدب كثيراً واحترام الحقيقة وتحرى الانصاف لولا ما ركب فى طباع الفتح من جشع وما أصيب به من انحراف وشذوذ .

ومن جيد رسائله تلك الرسالة التى بعث بها إلى أمير المسلمين على بن يوسف ابن تاشفين يشكو الوزير الخطير والحكيم العظيم ، أبا العلاء زهر بن عبد الملك ، وكانت بينه وبين الفتح عداوة لم تذكر المراجع التى بين يدى أسبابها ، والظاهر أن الفتح كان مبتلى بعداوة الحكماء والفلاسفة والمتنبي يقول :

ومكايد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بئس المقتنى

وما أحسب عداوة الحكماء أقل ضرراً من عداوة الشعراء بل ربما كانت أبلغ ضرراً وأسوأ عاقبة ، ويقول الفتح فى رسالته « (١) أطال الله بقاء الأمير الأجل سامعاً للنداء ، دافعاً للتطاول والاعتداء ، لم ينظم الله تعالى بلبتك الملك عقداً وجعل لك حلا للأمور وعقداً ، وأوطأ لك عقباً ، وأصار الناس لعونك منتظراً ومرتقباً ، إلا أن تكون للبرية حائطاً ، وللعدل فيهم باسطا ، حتى لا يكون فيهم من يضام ، ولا ينال أحدهم اهتضام ، ولتقصر يد كل معتد فى الظلام ، وهذا ابن زهر الذى أجررته رسناً ، وأوضحت له إلى الاستطالة سنناً ، لم يتعد من الإضرار إلى حيث انتهيته ، ولا تمادى على غيه إلا حين لم تنهه أو نهيته ، ولما علم أنك لا تنكر عليه نكراً ، ولا تغير له متى ما مكر فى عباد الله مكراً ، جرى فى ميدان الأذية ملء عنانه ، وسرى إلى ماشاء بعدوانه ، ولم يرقب الذى خلقه ، وأمد الخطوة عند طلقه ، وأنت بذلك مرتهن عند الله تعالى لأنه مكنك لئلا يتمكن الجور ، ولتسكن بك الفلاة والغور ، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل فى كل طريق ، وأخفق به كل فريق ، وقد علمت أن خالقك الباطش الغيور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما تخفى عليه نجواك . ولا يستتر عنه تقلبك ومثواك ، وستقف بين يدى أعدل حاكم ، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم ، قد علم كل قضية قضاها ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فبم تحتج معى لديه إذا وقفت أنا وأنت بين يديه ؟ أترى ابن زهر ينجيك فى ذلك المقام ، أو يحميك من الانتقام ؛ وقد أوضحت لك الحجة ، لتقوم عليك الحجة ؛ والله سبحانه النصير وهو بكل خلق بصير ؛ لا رب غيره والسلام »

(١) الجزء الثالث من نفح الطيب صفحة ١٤ .

وربما كان من بواعث اجتراء الفتح فى مخاطبة ابن يوسف فى هذه الرسالة ما كان يعلم من فرط تقوى الرجل وشدة خوفه لله ولذلك أكثر الفتح من الضرب على هذه النغمة فى رسالته .

وقد كانت خاتمة حياة الفتح مأساة أليمة . فقد وجد قتيلا فى فندق بمراكش سنة ٥٢٨ هجرية أو سنة ٥٢٩ ممثلا به أقبح تمثيل . ويقال إن الذى أشار بقتله أمير المؤمنين على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكان معروفا بصرامة العقيدة والشدة فى أمور الدين . وهو أخو الامير أبى اسحق ابراهيم بن يوسف الذى أهدى اليه الفتح كتاب القلائد وأثنى عليه فى صدر الكتاب ثناءاً مستطاباً ، وربما كان هناك خلاف أو تنافس بين الأخوين كان الفتح من ضحاياه ،وربما كان للرسالة المذكورة أثر فى غضب أمير المسلمين عليه وإشارته بقتله ، رحم الله الفتح وغفرله .

ابن بسام أو مؤرخ الأدب

روى المقرى فى كتابه القيم « نفح الطيب » أن أحد رجال المغرب وفد على بغداد حاضرة الخلافة العباسية فى عهد الخليفة الجليل الشأن هارون الرشيد ، ولأمر ما مثل هـــذا الوافد المغربى بين يدى الخليفة العظيم ، فقال له الخليفة فى حديثه معه وهو يدل بسعة سلطانه وعلو شأنه « يقال إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب » فأجابه المغربى وكان على ما يظهر رجلا حاضر البديهة جرىء الجنان « صدقوا يا أمير المؤمنين وإنه طاووس » فضحك الرشيد وتعجب من سرعة جواب الرجل وانتصاره لقطره ، ولعل هذ الجواب البارع — إن كان لهذه القصة المروية نصيب من الحق ولم تكن من تلفيق الوضاعين أو طرف الظرفاء المتندرين — قد حمل الرشيد على أن يعيد نظره فى تقدير أهل الأندلس والمغرب ، وأن يعلم أن الله تعالت قدرته أكرم وأعدل من أن يسبغ المواهب جميعها على قوم من الأقوام ، ويحرم منها سائر البشر ، فلكل مصر من الأمصار ميزته وبراعاته وخصائصه التى يتفرد بها ، ولكل قوم من الأقوام مجال من مجالات السبق والتجويد والإحسان والتبريز ، وقد مضى العهد الذى كانت فيه المآرب السياسية المتهمة أو التعصبات المذهبية الغاشمة تقتضى ترجيح الغرب على الشرق أو تفضيل الشرق على الغرب ، وأصبحنا فى عهد نحرص فيه الحرص كله على معرفة الثقافات الإنسانية فى شتى ألوانها ، ومختلف مظاهرها ، لتزداد مداركنا سعة وعمقاً ، وتتأكد معرفتنا ، ويستقيم تفكيرنا ، وتطرد مقاييسنا .

وقد لا نجد فى الأدب الأندلسى نظراء للفحول المتقدمين من كبار شعراء المشارقة من طبقة أمثال المتنبى وأبى تمام والبحترى والمعرى والشريف الرضى ، ولكن لا نزاع فى أن الأدب العربى يخسر الكثير إذا أغفل شعر أمثال ابن زيدون وابن خفاجة وابن دراج القسطلى والرمادى وابن شهيد وغيرهم من كبار شعراء

الأندلس وممثلي الأدب الأندلسي والثقافة الأندلسية المغربية ، ونحن إن كنا لا نرى في الأدب الأندلسي الجبال الشامخة الذرى التي تطالعنا في أدب المشارقة إلا أن الهضبات الكثيرة التي تصادفنا في الأدب الأندلسي لها جمالها وروعتها ، وهي حافلة بمونق الأزهار وشهي الثمار ، وقد أبقى لنا منها مجموعة صالحة ونخبة ممتازة من الشعر والنثر ذلك الكتاب الممتع النفيس الذي وضعه الأديب المهذب الذوق ، الحسن الاختيار ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني وأسماه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وهذا الكتاب من أجل كتب الأدب العربي وأنفسها وأحفلها بالطرف والروائع وعجائب الأخبار ، وغرائب السير ، وقد لا يكون له من علو الشأن وجلالة الخطر ما لكتاب الأغاني أو تاريخ الأمم والملوك للطبري وأمثالها من المراجع المأثورة، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يطاول الكثير من المؤلفات الأخرى الأدبية ذوات الشهرة الواسعة والمكانة العالية مثل كتاب يتيمة الدهر للثعالبي وزهر الآداب للحصري ، وهو بالقياس إلى الأدب الأندلسي مرجع من أهم المراجع وأوثقها وأغناها ، وحينما يكمل طبع الأجزاء الباقية منه سيجد الباحثون في تاريخ الأدب الأندلسي وتاريخ الأندلس عامة أن جانبا لا يستهان به من طريق البحث في الأدب الأندلسي والتاريخ الأندلسي قد أصبح واضح المعالم لا يضل فيه السائر بين الشعاب والثنايا والمنعرجات .

ومؤلف هذا الكتاب الجامع والسفر النفيس وهو أبو الحسن علي بن بسام من الرجال الذين كنا نحب أن نعلم الكثير عن نشأتهم وسيرتهم ، ولا نزاع في أن حياة الرجل الذي سد مثل هذه الثغرة في تاريخ الأدب الأندلسي جديرة بالدرس والعناية ، ولكن ما نعلمه عن حياة ابن بسام ونشأته ومذهبه وسيرته قليل جدا لا ينقع الغلة ولا يفي بالحاجة ، وقد كان ابن خلكان يعرف اسمه ، وقد أطلع على كتابه ، ونقل عنه ، واعتمد عليه ، ومع ذلك لم يحشره في زمرة أعيانه ولم يخصه ياقوت الحموي في معجمه المعروف سوى بأسطر قلائل ، وهو

---

(١) نفح الطيب الجزء الأول ٢٢٨ .

عنده مؤلف كتاب الذخيرة وكفى ، وذكره المقرى مرارا فى نفح الطيب ونقل عنه ، ولكنه مع ذلك لم يفرد له ترجمة مفصلة أو موجزة ، وإنها لعبرة مؤلمة أن تضيع أخبار من حفظ أخبار الناس ولا نعرف تاريخ من وعى صدره التاريخ ، وقد نشأ ابن بسام فى مدينة شنترين ، وهى مدينة معدودة فى كورباجة على الشاطئ الأيمن من نهر تاجه وموقعها إلى الشمال الشرقى من أشبونة ، يقول عنها صاحب الروض المعطار(١) « إنها من أكرم الأرضين ولها بساتين كثيرة وفواكه ومباقل وبينها وبين بطليوس أربع مراحل ، ونهرها يفيض على بطحائها كفيض نيل مصر فيزدرع أهلها على ثراه عند انقطاع الزريعة في البلاد وذهاب أوانها ، فلا يقصر عن نمائه الطيب ، ولا يتأخر إدراكه » وقد ظل بها ابن بسام مكفول الرزق ، مكفى الحاجة ، قد أغناه كرم الانتساب عن سوء الاكتساب ، كما يقول عن نفسه ، حتى خرج منها مروع السرب ، مفلول الغرب ، وكان موقف المسلمين فى الأندلس قد أخذ يتحرج منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ، وازداد خطورة خلال القرن الخامس ، وكانت المدن الواقعة فى الأطراف المتنائية مثل شنترين تجد صعوبة فى المحافظة على كيانها ورد الغارات عنها ، ولما انهارت الخلافة الأموية بالأندلس ، وظهر ملوك الطوائف كانت شنترين من البلاد التى دخلت فى حوزة بنى الأفطس ، وقد اتصل ملكهم حتى قتل المرابطون المتوكل آخر ملوكهم فى غرة سنة ٤٨٥ ، والظاهر أن مدينة شنترين وقعت بعد ذلك فى قبضة الأسبانيين حتى استردها منهم الأمير سير بن أبى بكر بن تاشفين أخى يوسف ابن تاشفين فى عهد أمير المسلمين ملك المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ، ولكن الأسبانيين عاودوا الكرة واستولوا عليها ، وقد حاول أمير الموحدين أبو يعقوب استردادها فى سنة ٥٧٩ هجرية ، ولكنه لم يوفق فى ذلك ، ولم يذكر لنا ابن بسام سنة خروجه من شنترين ، ومهما يكن من الأمر فإنه قد لقى صعوبات جمة فى النجاة بنفسه ووصل إشبيلية « بنفس قد تقطعت شعاعاً ، وذهب أكثرها التياعاً » ،

(١) صفة جزيرة الأندلس المنتخبة من الروض المعطار صفحة ١١٣ طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ولم يحمد مقامه بها ، فقد كانت سوق الأدب بها كاسدة وحامله « أضيع من قمر الشتاء وقيمة كل أحد ماله » وقد ظل ابن بسام بها مهجور الفناء ، وحيداً من الخلان ، يعانى أزمة الفقر وسوء الحال حتى « طلع على أرضها شهاب سعدها وتمكينها ، وهبت لها ريح دنياها ودينها ، ملك أملاكها وجذيل محاكها ، وأسعد نجوم أفلاكها ، « فلان » ثمال المظلوم ، ومال السائل والمحروم ، ومحيى العلم ومربع ذويه وحامليه » وعطف عليه هذا الأمير وأخذ بيده فطالع حضرته بكتاب الذخيرة ، وإن كان قد طوى عنا اسمه ولقبه ونسبه وحسبه ، والأرجح أن هذا الأمير المجهول كان فى طليعة رجال المرابطين وربما كان أحد أبناء يوسف بن تاشفين نفسه أو أحد افراد أسرته .

وقد ذكر لنا ابن بسام فى صراحة مستحبة السبب الذى حمله على تأليف هذا الكتاب وجمع مادته فقال فى مقدمته (١) « وما زال فى أفقنا هذا الأندلسى القصى إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين وأئمة النوعين قوم هم ما هم طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجى بجفون المؤرق ، وحدوا بفنون السحر المنمق حداء الأعشى ببنات المحلق ، فصبوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غرر الضحى والأصائل بعجائب الأشعار والرسائل ... إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصية ، ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، لا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبع أهل بلدى وعصرى ، غيرة لهذه الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديماً

---

(١) الذخيرة المجلد الأول القسم الأول صفحة ١ .

ضيعوا العلم وأهله ويارب محسن مات إحسانه قبله ! وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالإحسان ؟ »

ونرى من ذلك أن الحافز لهذا الرجل الفاضل على وضع هذا الكتاب هو ما نسميه بلغة عصرنا « النزعة القومية » أو « العاطفة الوطنية » فقد حرك قوميته وأثار وطنيته شدة عناية أهل الأندلس بأدب المشارقة وإهمالهم أدبهم القومى مع جودته وامتيازه واستحقاقه للعناية والرعاية ، وقد أراد ابن بسام أن يرد للأدب الأندلسى اعتباره ، ويسترعى الأنظار إلى محاسنه ، ويسجل براعاته وعبقرياته ، على أن هذه النزعة القومية أو الغضبة المضرية الوطنية لم تضل رأيه ، ولم تفسد عليه حكمه ، وسبب ذلك ثقافته الواسعة ، واطلاعه الغزير ، وتضلعه من فنون الأدب العربى فى متتابع عصوره ، والثقافة الحقة تحد من صولة الهوى ، وتميل بالإنسان إلى القصد والاعتدال ، وكان ابن بسام أعرف بفضل الشعراء والكتاب والأدباء المشارقة من أن يبخسهم حقهم ، وأسلم ذوقاً وأصح تقديراً من أن ينحل أهل الأندلس والمغرب ما ليس لهم ، وليس أدل على سعة أفق ابن بسام وطلاقة تفكيره من أنه كان لا يرى الإجادة مقصورة على قوم دون قوم ، وأنها لا ينفرد بها الشرق دون الغرب ولا القدماء دون المحدثين ، وهو يرى سخافة الرأى القائل بأن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئاً ، ويقول فى مقدمة كتابه (١) « وكم من نكتة أغفلتها الخطباء ، ورب متردم غادرته الشعراء ، والإحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، وعزيز على الفضل أن ينكر ، تقدم به الزمن أو تأخر ، ولحى الله قولهم الفضل للمتقدم ! فكم دفن من إحسان ، وأخمل من فلان ! ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير وذهب أدب غزير » .

فالرجل لا يريد أن ينصف أهل الأندلس وحدهم وإنما يريد أن ينصف فكرة

---

(١) الذخيرة المجلد الاول القسم الأول صفحة ٣ .

« الحداثة والتجديد » ويهدم فكرة ترجيح القدامى على المحدثين لمجرد كونهم قد تقدم بهم الزمن وتأخر الزمن بالمحدثين .

وظاهر من طريقة تنسيق الكتاب ومن بعض عباراته الصريحة وإشاراته الواضحة أن المؤلف قد اتخذ الثعالبي صاحب اليتيمة قدوة له وإماماً ، فجرى على خطته وسار على منهجه ، واصطنع السجع كما اصطنعه الثعالبي ، واحتفل وتأنق في تقديم الكتاب والشعراء والإشارة إلى محاسنهم والتنويه ببراعاتهم احتفال الثعالبي وتأنقه في الحديث عن شعراء اليتيمة وكتابها والإشادة بذكرهم ، وقد كان الثعالبي مؤلفاً بارعاً له كتب كثيرة في موضوعات مختلفة جزيلة الفائدة تدل على تمكن ، وتنم على حياة أوقفت على البحث والتصنيف ، وأما ابن بسام فإني لا أعرف له غير كتاب الذخيرة ، والظاهر أنه استغرق جهده واستأثر بوقته ، وبخاصة لأن الكثيرين ممن ذكرهم في كتابه لم تكن لهم أخبار مكتوبة ، ولا أشعار مجموعة ، ولا رسائل مقيدة ، تفسح له طريق الاختيار ، وقد اضطره ذلك إلى البحث الطويل والاستقصاء الشاق ، ويبدو لي أن الثعالبي كان على فضله وعلمه وسعة اطلاعه أكثر خضوعاً لأحكام القدماء من ابن بسام ، وأنه كثيراً ما يخدعه البهرج ويحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، وأما ابن بسام فإنه نافذ النظر ، سليم الذوق ، بارع الناقدة ، دقيق الملاحظة ، لا يخدعه الطلاء المموه ، ولا تضل تفكيره الألفاظ الضخمة المدوية أو الطنطنة العالية .

وقد قسم كتابه أربعة أقسام باعتبار الأقاليم كما قسم الثعالبي كتابه باعتبار الأقاليم ، فقسم لقرطبة وما يصاقبها من وسط الأندلس ، وقسم لإشبيلية وما اتصل بها من بلاد غرب الأندلس ، وقسم لبلنسية وما يليها من شرق الأندلس ، وأفرد القسم الرابع لمن طرأ على شبه الجزيرة في المدة المؤرخة من أديب وشاعر وكاتب ، ووصل بهذا القسم ذكر طائفة من مشهوري عصره ممن نجموا بإفريقية والشام والعراق ومصر ، وصرح بأنه ذكر هؤلاء إئتساء بأبي منصور الثعالبي في اليتيمة .

وقد اختص بعنايته أخبار الملوك والأمراء والرؤساء وتأثيرهم فى الأدب كما فعل الثعالبى والفتح بن خاقان وغيرهما من مؤرخى الأدب ، ليوضح العلاقة بين الأدب والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة ، وتأثير تلك الأحوال فى اتجاهات الأدب ومشاعر الشعراء والكتاب وإنتاجهم الفنى ، وهو فى هذه الناحية يفضل الثعالبى وغيره من مؤرخى الآداب لأنه لا يكتفى بالأخبار العامة والملاحظات العارضة ، وإنما يقف وقفات طويلة ، ويفصل ويدقق ، ويتحرى ويتثبت ، ويأتى بالفوائد التاريخية القيمة ، ويستق الأخبار من ينابيعها الأصلية ، وقد آمن بالمنهج التاريخى فى الأدب والنقد ، وأخذ به وعمل فى حدوده قبل أن يعرف هذا المذهب فى القرن التاسع عشر ، وترسم حدوده ، وتفصل طرائقه ، وحرصه على التحرى والاستقصاء فى هذا الموضوع جعله يرجع إلى المؤرخين الثقات ويستشيرهم ، وينقل عنهم ، ويستمد منهم ، وكان من حسن التوفيق أنه اعتمد على شيخ مؤرخى الأندلس وزعيمهم غير منازع المؤرخ الأندلسى الذائع الصيت ابن حيان ، وهو مؤرخ معروف بالصدق ودقة التحرى والصراحة واستقلال الرأى مع براعة الأسلوب وطرافته والمقدرة الفائقة فى تصوير الحوادث ووصف الرجال والأعمال ونقدها ، وهو يكثر من النقل عنه ويطيل فى بعض المواقف إطالة غير مملولة ، بل لعلها إطالة مفيدة شائقة ، لأن ابن حيان يعرف كيف يجتذب القارىء فى رواية الأخبار ، وعرض الحوادث ، والتحدث عن الرجال ، وقد أشار ابن بسام إلى عنايته بالمنهج التاريخى فى الأدب بقوله(١) «وتخللت ما ضمنته من الرسائل والأشعار بما اتصلت به أو قيلت فيه من الوقائع والأخبار ، واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة فشرحت بعض محنها ، وجلوت وجوه فتنها ، وأحصيت علل استيلاء طوائف الروم على الأقاليم ، وألمعت بالأسباب التى دعت ملوكها إلى خلعهم ، واجتثاث أصلهم وفرعهم ، وعبرت عن أكثر ذلك بلفظ يتتبع الهم بين الجوانح ، ويحل العصم سهل الاباطح ،

(١) الذخيرة القسم الأول من المجلد الأول صفحة ٧ .

وعولت فى ذلك على تاريخ أبى مروان بن حيان ، فأوردت فصوله ، ونقلت جمله وتفاصيله ، فإذا أعوزنى كلامه ، وعزنى سرده ونظامه ، عكفت على طللى البائد، وضربت فى حديدى البارد ، على حفظ قد تشعب ، وحظ من الدنيا قد ذهب » .

وهو كلام يدل على صراحة الرجل وتواضعه واعتداله ، ولو لم يكن من مزايا كتابه سوى عنايته بالمحافظة على الكثير من نصوص تاريخ ابن حيان الذى فقد الكثير مما دبجته يراعته ووعاه علمه لكفاه ذلك فضلا ونبلا ، ولكان ذلك وحده من دواعى الحرص على كتابه والرغبة فى الاطلاع عليه ، والاستمتاع بما فيه من مادة طلية ، وأخبار معجبة شائقة .

ولابن بسام استدراكات وتعليقات على بعض أبيات الشعر التى يذكرها والأخبار التى ينقلها تدل على ضلاعته وكفايته وسعة اطلاعه ، والأسجاع القوية التى يقدم بها الكتاب والشعراء لا تخلو من مبالغة واضحة ، وكانت المبالغة آفة من آفات عصره والعصور التى تلته ، ولكنها لا تخلو فى الوقت نفسه من صدق نظر وقوة تمييز ، ومحاولة لتحديد المواهب ووصف الملكات ، وفى الأجزاء المطبوعة من الكتاب لمحات من أخباره وأحواله ، من ذلك ما رواه عن اجتماعه بالوزير ابن عبدون وهو قوله (١) « اجتمعت بالوزير أبى محمد عبد المجيد بن عبدون أول لقائى له بشنترين فى جملة أصحاب المتوكل ، فأول مجلس اجتمعت معه فيه وسمع بعض الإخوان يدعوننى باسمى فقال لى « أنت على بن بسام حقا ؟ قلت « نعم» ،قال «أو تهجو حتى الآن أباك أبا جعفر وأخاك جعفرا» ؟ فقلت : «وأنت أيضا عبد المجيد؟» فقال«أجل»! قلت«وحتى الآن فيك ابن مناذر يتغزل»؟ فضحك من حضر لهذا الجواب الحاضر » وقد ذكر له المقرى فى النفح بعض أبيات من الشعر منها قوله يخاطب أبا بكر بن عبد العزيز :

أبا بكر(٢) المجتبى للأدب رفيع العماد قريع الحسب

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول صفحة ١٢٠ .

(٢) نفح الطيب الجزء ٥ صفحة ٩ .

أيلحن فيك الزمان الخئون ... ويعرب عنك لسان العرب
وإن لم يكن أفقنا واحداً ... فينظمنا شمل هـــذا الأدب

ونظمه دون نثره كما لحظ المقرى ، وقد مدحه أبو بكر بن عبادة بأبيات يقول منها .

يامنيفا(١) على السماكين سـام ... جزت خصل السباق عن بسام
إن تحك مدحة فأنت زهير ... أو تشبب فعروة بن حزام
أو تباكر صيد المها فابن حجر ... أو تبكى الديار فابن خـذام
أو تذم الزمان وهو حقيق ... فأبو الطيب البعيـد المرامى

وكتاب الذخيرة كاف فى التنويه بفضل ابن بسام وتخليد اسمه . وقد توفى سنة ٥٤١ هجرية .

---

(٣) نفح الطيب الجزء ٥ صفحة ٣٨ .

الطرطوشي أو المؤرخ السياسي

كان اليونانيون القدامى ينظرون في تفكيرهم الفلسفي إلى السياسة والأخلاق من حيث هما شيء واحد ، فمشكلة البحث عن طبيعة الحياة الصالحة للفرد ومشكلة معرفة المبادىء المسيطرة على اجتماع الأفراد في المجتمع أو التي يجب أن تسيطر على اجتماعهم كانتا عند اليونانيين وجهين لمسألة واحدة ، وكانوا يرون أنك لا تستطيع أن توفق في علاج إحدى هاتين المشكلتين دون أن تبحث المشكلة الأخرى وتهتدي إلى موقف خاص حيالها ، فليس في وسع إنسان أن يقرر ماهو أحسن نظام للمجتمع دون أن يفكر في حياة الأفراد وسبل إسعادهم ، وآراء أفلاطون في هذه الناحية تطابق آراء أرسطو .

وجرى التفكير الاجتماعي والفلسفي على هذا النمط حينا طويلا من الدهر ، ولكن في عهد إحياء العلوم حدث صدع فرق بين الاثنين ، فاستقلت السياسة عن الأخلاق وانفصلت الأخلاق عن السياسة ، ويعلل ذلك الفيلسوف الإنجليزي جود في كتابه عن فلسفة الأخلاق والسياسة بأن التفكير الروماني قد حافظ على هذه الوحدة ، ولكن المسيحية كانت ترمى إلى جعل أساس الحياة الإنسانية في العالم الآخر لا في هذا العالم « فمدينة الله » هي المقر الروحي للإنسان لا « مدينة الدولة » ، ومن ثم عملت من بادىء الأمر على إيجاد هـذا التمييز ، وبتأثير البروتستانتية أصبح هذا التمييز نوعاً من التفريق بينهما ، ومن ثم نرى التباعد بين موضوع السياسة وموضوع الأخلاق منذ عهد الإصلاح ، فالأخلاق تتناول معنى كلمتي الخير والشر ومصادر العمل الصالح وطبيعة الالتزام الأدبي ومصدره ومعنى الحق والباطل وأمثال هذه المسائل ، واكتفت السياسة بتناول البحث عن أصل المجتمع ، وما هي الحاجات البشرية التي دعت إليه وما هي المبادىء المسيطرة عليه ؟ وعملت على البحث في ضوء هذه المبادىء عن أحسن أنواع الاجتماع

الإنسانى ، وهل هو حكومة الفرد الأوتقراطية أو حكومة الأقلية الأرستقراطية ، أو الحكومة الدمقراطية القائمة على التمثيل الانتخابى ؟ فإذا كانت حكومة الأقلية هى خير أنواع الحكم فما هى المؤهلات التى يجب أن تتوفر فى الصفوة المختارة التى تنهض بأعباء الحكم ؟ وإذا كانت حكومة الأكثرية فما هى الوسائل الكفيلة بصحة الاختيار وصدق التمثيل ؟ وما هى الضمانات التى تجعل النواب لا يسيئون استعمال سلطتهم ؟ وما هى حقوق الفرد فى علاقته بالدولة ؟ وما هى حدود سلطان الدولة على الفرد ؟ وقد كانت هذه المسائل وأشباهها تبحث بحثاً سياسياً خالصاً إلى حد كبير لا أثر فيه للبحوث الأخلاقية ، ويتمثل ذلك فى كتابات الفلاسفة السياسيين أمثال هوبز ولوك وروسو وهيجل وماركس وسبنسر ، فتفكيرهم السياسى يكاد يكون مستقلا عن تفكيرهم الأخلاقى .

ولكن منذ أوائل القرن العشرين طرأ تغيير هام على ذلك ، وبدأ التفكير السياسى والتفكير الأخلاقى يتقاربان ويتلاقيان ، وطويت مسافة الخلف بينهما ، والفكرة السائدة فى العصر الحاضر أن الحياة الصالحة للفرد لا يمكن أن تتوفر أسبابها إلا فى المجتمع الصالح ، فصلاح الفرد وسعادته متوقفان على حالة المجتمع ، وحالة المجتمع قائمة على حالة أفراده ، وبذلك تتلاقى السياسة والأخلاق ، ومن عيوب النظم الفاشية أنها ترجح جانب الدولة ومصلحتها على جانب الفرد ومصلحته ، ومن مزايا النظم الدمقراطية الصحيحة أنها توازن بين مصلحة الدولة ومصلحة الفرد ، ولكن معظم النظم السياسية الحديثة بوجه عام تجهد فى التوفيق بين السياسة والأخلاق .

ومعظم المفكرين السياسيين فى الإسلام لم يروا هذا التفريق بين السياسة والأخلاق الذى ساد إلى حد كبير التفكير الغربى منذ عهد إحياء العلوم إلى أوائل هذا القرن ، وترى ذلك فى تفكير رجل مثل ابن خلدون أو ابن الطقطقى صاحب كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » وغيرهما من مفكرى الإسلام ومؤرخيه ، ومن أبرز هؤلاء المفكرين السياسيين وألمعهم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى

مؤلف كتاب « سراج الملوك » ، وهو كتاب حافل بالأخبار الشائقة ، والنوادر الطريفة ، والقصص الممتعة ، والنظرات السديدة والملاحظات القيمة ، والحكم الجامعة ، وهو ثمرة تجربته المستفيضة ، وعلمه الغزير ، واطلاعه الواسع ، وتضلعه من التاريخ والفقه والشريعة والآداب الإسلامية ، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى كتاب الطرطوشي فقال في غضون كلامه عن العمران البشري والاجتماع الإنساني(١) « وكذلك حوم أبو بكر الطرطوشي في كتاب « سراج الملوك » وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ، ولكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة ، وإنما يبوب الباب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار، وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس وغيرهم من أكابر الخليقة ، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا ، وإنما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ، وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق مقصده ولا استوفى مسائله ، ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً ... » وقد أراد ابن خلدون أن يفخر بعلمه ، وبما أعثره الله عليه من أسباب التوفيق ، فلم ير بأساً من نقد الطرطوشي والتعالي عليه ، ولم تكن غاية الطرطوشي علمية خالصة مثل ابن خلدون في مقدمته ، وإنما كان يريد أن يعرض ملاحظاته ومشاهداته عرضاً فنياً لتؤثر في النفوس ، وتخلب الألباب ، وتتغلغل إلى القلوب ، ولذا كان يستكثر من الأقاصيص العجيبة ، والنوادر المتخيرة ، وحقيقة أن أبا بكر لم يكن نداً لابن خلدون في القدرة على التقصي والتماس العلل والأسباب ، ولكن هدفه لم يكن هدف ابن خلدون ، ومن الإنصاف في النقد أن ننظر إلى مدى توفيق المؤلف في إصابة الأهداف التي رمى إليها ، ومدى نجاحه أو إخفاقه في إصابة هذه الأهداف ، وأعتقد أن كتاب سراج الملوك يرجح إذا وزناه بهذا الميزان لأنه حقق الهدف الذي قصده مؤلفه .

والطرطوشي نسبة إلى مدينة طرطوشة إحدى مدن أسبانيا ، وقد وصفها صاحب الروض المعطار(١) بأنها واقعة في سفح جبل ، وأن بجبالها خشب الصنوبر

---

(١) مقدمة ابن خلدون طبع مصر صفحة ٤٣/٤٤ .

(٢) الروض المعطار طبع مصر صفحة ١٢٤ .

الذى تتخذ منه صوارى السفن ، وبينها وبين البحر المتوسط ما يقرب من عشرين ميلا ، وبأنها وسط تجارى هام ، وقد ولد بها فى سنة ٤٥١ هجرية ، وتلقى بها علوم الأدب والدين والشريعة ، ثم صحب القاضى أبا الوليد الباجى بسرقسطة وسمع منه وأجازه أبو الوليد ، وقرأ الأدب على أبى محمد بن حزم بمدينة إشبيلية ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ هجرية وأدى فريضة الحج ، ودخل بغداد فتفقه على أبى بكر الشاشى وأبى محمد الجرجانى ، ودرس فى البصرة ، وسكن الشام مدة ودرس بها ، ثم زار بيت المقدس ، ودخل مصر ، وقضى حينا من الزمن فى القاهرة ، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية ، واستقر بها إلى أن أدركته الوفاة فى سنة ٥٢٠ هجرية ودفن فى ناحية الباب الأخضر ، وقبره معروف بالإسكندرية ، وكان الطرطوشى إماما زاهداً ورعاً ، متديناً متواضعا ، متقشفاً متقللا من الدنيا راضيا منها باليسير ، وله عدة مؤلفات منها مختصر تفسير الثعلبى والكتاب الكبير فى مسائل الخلاف وغيرها ، وكان لهذا العالم الجليل والزاهد المتعبد شعر رقيق ينم على نفس حساسة وشعور مرهف ، من ذلك قوله :

أقلب طرفى فى السماء تردداً ... لعلى أرى النجم الذى أنت تنظر
واستعرض الركبان من كل وجهة ... لعلى بمن قد شم عرفك أظفر
وأستقبل الأرواح عند هبوبها ... لعل نسيم الريح عنك يخبر
وأمشى ومالى فى الطريق مآرب ... عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر
وألمح من ألقاه من غير حاجة ... عسى لمحة من نور وجهك تسفر

وقد جعله زهده وورعه قوالا للحق ، كارها للباطل ، شديد التبرم بالظلم طالباً للعدالة نزاعاً إلى الإصلاح ، مؤثراً للنصح والإرشاد والوعظ ، صريحاً فى مخاطبة الرؤساء والحكام ، معتقداً أنه بذلك يؤدى واجبه ويبلغ رسالته.

وقد قدم الطرطوشى مصر فى عهد انحلال الدولة الفاطمية ، وقرب أفول نجمها ، وانطواء سلطانها ، وكان للوزراء الفاطميين فى تلك الفترة السلطة المطلقة ، والنفوذ التام ، ولما وجد الخليفة الآمر الفاطمى أن وزيره الأفضل بن أمير الجيوش بدر

الجمالى قد استبد بالأمر دونه ولم يترك له من الأمر شيئاً شعر بالحاجة إلى التخلص منه ، فدبر مكيدة لاغتياله ، وقد قتل الأفضل فى سنة ٥١٥ وخلفه فى الوزارة أبو عبدالله المأمون بن البطائحى ، ولأمر ما كان الأفضل يكره الطرطوشى ، فلم يرع حقه ، وقصر فى إكرامه ، وربما كان لصراحة الطرطوشى أثر فى ذلك، ولما قتل الأفضل وولى بعده المأمون البطائحى أكرم الشيخ إكراماً كثيراً ، والظاهر أن الطرطوشى أراد أن يقابل هذا الإكرام والصنيع الحسن بالتقدير الذى يستطيعه ، فألف كتابه المسمى « سراج الملوك » وأهداه إليه ، وأشار إلى ذلك فى مقدمته بقوله « ولما رأيت الأجل المأمون تاج الخلافة وعز الإسلام ، فخر الأيام ، نظام الدين خالصة أمير المؤمنين أبا عبد الله محمد الآمرى ؛ قد تفضل الله به على المسلمين ، فبسط فيهم يده ، ونشر فى صالح أحوالهم كلمته رغبت أن أخصه بهذا الكتاب ليذكر فضائله ومحاسنه ما بقى الدهر » ثم تمثل بهذين البيتين

الناس يهدون على قدرهم لكننى أهدى على قدرى
يهدون ما يفنى فأهدى الذى يبقى على الأيام والدهر

وعلل الطرطوشى إهداءه الكتاب للبطائحى بقوله « إن العلم عصمة الملوك والرؤساء ومعقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله »

وقد كسر الكتاب على أربعة وستين فصلا ؛ فالباب الأول مثلا فى مواعظ الملوك ، والباب الثانى فى مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين ، وعقد فصلا لمنافع السلطان ومضاره ، وفصلا آخر لمعرفة الخصال التى هى قواعد السلطان ، واختص الوزراء بأحد الأبواب ، وتكلم عما يصلح الرعية من الخصال ، وعن علاقة السلطان بالجند وبيت المال ؛ وما إلى ذلك من الموضوعات التى تتصل بسياسة الملك وتدبير أمور الرعية ؛ ومؤلفنا الفاضل على نقيض مكياڤلى ، فقد وجد الأحوال فى مصر سيئة ، وقد تكفل المؤرخون بوصف سوء حالة مصر فى ذلك

العهد المظلم ، وأراد أن يطب لهذه الأحوال السقيمة فلم ير خيراً من تحرى العدل فى السياسة والتعلق بالخصال الحميدة ، وأكثر من ذكر الشواهـــد والأمثلة والأحاديث والحكم والأخبار التى تؤيد وجهة نظره ، وتوضح سداد رأيه، وعنده أنه إذا أحسن الأمير ورجاله السياسة واستظلوا بالمبادىء القويمة السامية توطد الملك وصلحت أحوال الرعية ، أما مكياڤلى فإن سوء الأحوال فى إيطاليا جعله يفكر فى علاج لإصلاحها وإنهاضها من كبوتها ، فدله تفكيره على أن هذا العلاج غير ميسور إلا إذا وجدت الحكومة القوية التى تستطيع حسم الفوضى وتوحيد الكلمة ، وأباح لأميره أن يختار السبل المفضية إلى ذلك دون أن يشغل باله بمراعاة الالتزامات الأخلاقية ، وهو صريح فى فصله الأخلاق عن السياسة فصلا تاماً لا تردد فيه ولا جمجمة ، وربما كان لحياة الرجلين الخاصة أثر فى توجيه تفكيرهما ، فقد كان مكياڤلى رغم مكانته الأدبية الممتازة وإخلاصه لقضية بلاده رجلا دنيوياً حريصا على المتعة كسائر أبناء عصره ، أما الطرطوشى فكان رجل أخلاق وفضيلة وطهر وزهد ونقاء قبل كل شىء ، وفى رأيى المتواضع أن آراء الطرطوشى أصح فى المدى المتطاول والنتائج البعيدة من آراء مكياڤلى ومن يلفون لفه ويأخذون بوصاياه ونصائحه .

وأثر الزهد والروح الدينية واضح فى الكتاب ، وقد روى عن نفسه فى أحد فصول الكتاب فقال « أحكى لك أمراً أصابنى طيش عقلى ، وبلبل عزمى ، وقطع نياط قلبى ، فلا يزال مرآه حتى يوارينى التراب ، وذلك أنى كنت يوما بالعراق وأنا أشرب ماء ، فقال لى صاحب لى وكان له عقل « يافلان لعل هذا الكوز الذى تشرب فيه الماء كان إنسانا يوما من الدهر ، فمات فصار ترابا ، فاتفق للفخارى أن أخذ تراب القبر فصيره خزفاً وسواه بالنار فانتظم كوزاً كما ترى ، وصار آنية تمتهن وتستخدم بعد ما كان بشراً سوياً يأكل ويشرب وينعم ويلذ ويطرب ، فإذا الذى قاله من الجائزات ، فإن الإنسان إذا مات عاد ترابا كما كان فى النشأة الأولى ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويعجن بالماء ترابه فيتخذ منه آنيه تمتهن فى البيوت

أو لبنة تبنى فى الجدار أو يطين بها سطح البيت ، أو يفرش فى الدار ويوطأ بالأقدام » ويسترسل فى تحليل هذه الفكرة وتقليبها على جوانبها المختلفة ، ويقول فى نهاية تحليله « أليس فى هذا ما أذهب العقول وطيش الحلوم ، ومنع اللذات وهان عنده مفارقة الأهلين والأموال واللحوق بقلل الجبال ؟ أليس فى هذا مايصغر أمر الدنيا وما فيها ؟ أليس فى هذا مازهد فى اللذات وسلى عن الشهوات ؟ » وهذا كلام يوضح لنا أن الطرطوشى كان مفكراً متأثراً بطبيعته الزاهدة ومزاجه الصوفى. فإن غيره من الناس الذين يختلفون عنه فى المزاج والطبيعة قد ينتهى بهم تفكيرهم إلى نتيجة مخالفة للنتيجة التى انتهى إليها الطرطوشى ، فالرجل الأبيقورى المزاج مثلا يرى أنه مادام كل شىء إلى زوال وفناء فلماذا لا نغتنم الحاضر ونعتصره ونستمتع به إلى أقصى حدود الاستمتاع كالشاعر الأندلسى الذى قال :

لا تنم واغتنم مسرة يوم إن تحت التراب نوما طويلا

فإن النوم الطويل تحت التراب لم يجعل هذا الشاعر يزدرى طيبات الحياة ويعرض عنها ويزهد فيها ، بل أغراه بطلب المتعة والتماس اللذة ، وزين له الحرص عليها ، ولكن وجهة نظر الطرطوشى مع ذلك جديرة بالتأمل والتقدير .

وقد روى لنا فى كتابه أحد مواقفه من الوزير صاحب الحول والطول الأفضل ابن أمير الجيوش فقال « دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش وهو ملك مصر فقلت « سلام عليكم ورحمة الله » فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلا ، وأكرم إكراماً جزيلا ، وأمرنى بدخول مجلسه والجلوس فيه ، فقلت « أيها الملك إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلا عالياً شامخاً ، وأنزلك منزلا شريفاً باذخاً ، وملكك طائفة من ملكه ، وأشركك فى حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك ، وأمر الله قد ألزم الورى طاعتك فلا يكون أحـــد أطوع لله منك ، وليس الشكر باللسان ، ولكنه بالفعل والإحسان ، واعلم أن هذا الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يديك بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خولك من هذه

الأمة ، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل .... » وأنهى كلامه بقوله «فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم ، أعانك الله على نصر المظلوم وجعلك كهفاً للملهوف وأماناً للخائف » وختم كلامه للأفضل بهذا البيت :

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلا حتى يروا عنده آثار إحسان

وربما كان من خير فصول الكتاب الباب الخاص بفضل الولاة والقضاة إذا عدلوا وفيه يقول « ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كما أن خيره يعم . كذلك ليس دون رتبة السلطان الجائر الشرير رتبة لشرير ، لأن شره يعم ، وكما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتقترف المعاصى والآثام ، وذلك لأن السلطان إذا عدل انتشر العدل فى الرعية ، وتعاطوا الحق فيما بينهم ، وإذا جار السلطان انتشر الجور وعم العباد ، واضمحلت المروءات ، وفشت المعاصى ، وذهبت الأمانات ، وتضعضعت النفوس ... » ويصف فى أحد الفصول خطورة موقف السلطان وصفاً دقيقاً فيقول « الخلق فى شغل عنه وهو مشغول بهم ، والرجل يخاف عدواً واحداً وهو يخاف ألف عدو ، والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وإيالة ضيعته ، وهو مدفوع لسياسة أهل مملكته ، وكلما رتق فتقا من حواشى مملكته انفتق آخر ، وكلما لم منها شعثاً رث آخر » .

ويعلل وجود الحكومة بقوله « جبلت الخلائق على حب الانتصاف وعدم الإنصاف ، ومثلهم بلا سلطان كمثل الحوت فى البحر يزدرد الكبير الصغير فتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر » .

ويمقت الطرطوشى المكر والدهاء فى السياسة ولذلك يقول « من صرف فضل عقله إلى الدهاء والمكر والشر والحيل والخديعة كالحجاج وزياد وأشباههما فمذموم » .

ومن أقواله الحكيمة البارعة « إن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تفعل فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل » .

ولم ينتفع رجال الدولة الفاطمية بكلماته الحقة ، ونصائحه الثمينة ، فقد كانت دولتهم تخب إلى السقوط ، وتسرع إلى النهاية المحتومة ، فذهبت كلماته صرخة فى واد ، ولكنها كأ كثر كلمات الحكماء ، ونظرات المفكرين الملهمين ، إن كانت تذهب مرة مع الريح فقد تذهب مرة أخرى بالأوتاد . وفى اعتقادى أن كتابه « سراج الملوك » من الكتب الجديرة بأن تعرف ويلتفت إليها لما فيه من أدب وحكمة ، ونقد وسياسة ، وتاريخ وتجارب ، وتوجيه وإرشاد ، وكل ذلك فى أسلوب رفيع وتنسيق بديع .

عبد الواحد المراكشي أو أحد مؤرخي الدول

الشيخ عبد الواحد المراكشي مؤلف كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ليس من الأعلام أو البارزين سواء في الأدب أو التاريخ أو السياسة المعروفين بكثرة تآليفهم وغزارة علمهم ، وبعد مطارح أفكارهم ، ولا أعرف له مؤلفاً آخر غير هذا الكتاب الذي لم يكتبه بدافع من نفسه وإنما كتبه استجابة لرغبة رجل من أعيان الدولة وأصحاب النفوذ والصولة توالت عليه نعمه ، وأخذ بضبعه من مضض الفقر والخمول ، فقد سأله هذا الرجل المنعم المتفضل « املاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره وشيء من سير ملوكه ، وخصوصاً ملوك المصامدة بني عبد المؤمن من أمد ابتداء دولتهم إلى سنة ٦٢١ هجرية » فلم ير الشيخ عبد الواحد بدآ من إسعافه والمسارعة إلى ما فيه رضاه ، لأنه كان الغاية التي يجري إليها والبغية التي يثابر أبداً عليها كما أكد لنا في الكلمة الموجزة التي قدم بها لكتابه .

وكتاب الشيخ عبدالواحد قيم وفذ في موضوعه وفي منهجه وأسلوبه ، وهو وإن لم يكن من فحول المؤرخين ، ومبرزي الكتاب المعروفين ، فإنه مؤرخ محقق جدير بالثقة به والاعتماد على أحكامه ، واحترام آرائه ونظراته ، وتقدير نقداته وملاحظاته ، يضاف إلى ذلك أنه مؤرخ رضي الأخلاق ، جم التواضع ، خفيف الظل ، قريب من القلب ، محبب إلى النفس ، في أسلوبه بساطة ويسر وسهولة وفي تحقيقه صراحة خلابة ، ونزاهة جذابة ، وكل هذه الصفات مجتمعة متوافرة تجعل قراءة كتابه أشبه بقراءة قصة شائقة مستمدة من واقع الحياة ، قائمة على حقائق التاريخ ، والشيخ عبد الواحد مع صراحته وقدرته على أن يصدع برأيه ويدلي بحجته ، بعيد عن الادعاء والتفيهق ، تشعر وأنت تسايره بأنك تستمع إلى رجل حسن الصحبة ، دمث الأخلاق ، طيب النفس ، لا يفرض عليك نفسه ،

ولا يحاول أن يرغمك على الإعجاب به ، والإشادة بمواهبه وملكاته ، والخضوع لآرائه وأحكامه ، بل هو على نقيض ذلك ، ولعله يسرف بعض الإسراف فى حرمان نفسه من حقها والنزول بها دون مستواها . وإذا كان مما يؤخذ على بعض المؤلفين استطالتهم وفرط اعتزازهم بما يكتبون ويؤلفون فإن صاحبنا المراكشى قد برئ من هذا العيب ، وسلم كل السلامة من هذا النقص ، وضرب للمؤلفين مثلا شروداً فى الاعتدال والاتزان ، والتواضع وطيب الخلال .

وكتابه فيما أعلم من الكتب القلائل التى تناولت تاريخ دولة الموحدين التى قامت فى المغرب وتغلبت على دولة المرابطين وبسطت سلطانها على المغرب والأندلس ، وكان لها شأن يذكر وأخبار تروى ، وسيرة جديرة بأن تسجل وتعرف ، وقد أخرجت للعالم رجالا ممتازين وحكاما قديرين ، منهم عبد المؤمن ابن على ، وابنه يوسف أبو يعقوب ، ويعقوب بن يوسف ، وغيرهم من أمراء هذه الدولة التى مهد لها وساعد على قيامها رجل غريب الشخصية عجيب الشأن يسمى محمد بن تومرت ، ويلقب بالمهدى . وقد ادعى هذا الرجل أنه المهدى المنتظر ونسب لنفسه العصمة ، وشخصية هذا الرجل فى رأيى مزيج من التدين والطموح والدجل إلى حد ما ، وقد كان — كما روى لنا عبد الواحد — يدعى علم الغيوب ، وكان يزعم أنه وقع فى الشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض خزائن خلفاء العباسيين ، ويرينا عبد الواحد بوضوح كيف استطاع هذا الرجل بصبره ، وقوة إرادته ، وحضور بديهته ، ومتانة شخصيته وسعة حيلته أن يهدم ملك المرابطين ، ويقيم على أنقاضه تلك الدولة المعروفة باسم دولة الموحدين .

وليس للشيخ عبد الواحد ترجمة معروفة فى كتب السير والتراجم والطبقات ، وليس له ذكر فى كتب التاريخ المعهودة ، سواء التاريخ الأدبى أو السياسى ، والظاهر أنه أدرك بصادق حسه ونافذ فطنته أنه سيكون من هؤلاء الجنود المجهولين الذين يهمل ذكر أسمائهم التاريخ ، فاحتاط للأمر ، وعز عليه أن تضيع أخباره فى زوايا النسيان ، وغمار حوادث التاريخ ، فذكر لنا فى ثنايا كتابه

معلومات نفيسة عن نفسه وميلاده ، ونشأته وأسفاره ، وسعيه فى مناكب الأرض وتقلبه فى الأوساط المختلفة ، والأمراء البارزين من أهل عصره الذين اتصلت بهم أسبابه ، وأظلته رعايتهم وشملوه بعطفهم ، واختصوه بثقتهم ، وأعجبوا بعلمه وأخلاقه ، حتى توثقت بينه وبينهم المودة والصداقة .

ويرجح المستشرق دوزى أن لقب « محي الدين » قد أضيف إلى اسم عبد الواحد فى المشرق ، لأن الألقاب التى تدخل فيها لفظة الدين — كما يقول دوزى — لم تكن تستعمل فى المغرب وبلاد الأندلس ، وأغلب من تسموا بذلك من أهل المغرب أو الأندلس اكتسبوا هذا اللقب فى أثناء رحلتهم إلى مصر والشرق .

وقد ذكر لنا عبد الواحد أنه ولد فى مراكش سنة ٥٨١ هجرية فى أول حكم أمير المؤمنين أبى يوسف يعقوب ثالث الأمراء الموحدين ، وهو يقول عن مراكش فى كتابه « مراكش آخر المدن بالمغرب ، وكان الذى اختطها ملك لمتونة تاشفين بن على ، ثم زاد فيها بعده ابنه يوسف بن تاشفين ، ثم زاد فيها بعدهما على بن يوسف بن تاشفين ، ثم ملكها المصامدة ، وهم الموحدون فزادوا بها حتى جاءت فى نهاية الكبر فهى اليوم طولا وعرضاً قدر أربع فراسخ ، هذا إذا ضمت إليها قصور بنى عبد المؤمن ، وأجرى المصامدة فيها مياها كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك ، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك ، فصارت بذلك فى نهاية الحسن وغاية الكمال كما قال الأول .

ليس فيها ما يقال له   كملت لو أنه كملا

وبهذه المدينة مسقط رأسى ، وهى أول أرض مس جلدى ترابها » .

وقد انتقل منها عبد الواحد وهو فى التاسعة من عمره إلى مدينة فارس ، وأقام بها إلى أن قرأ القرآن الكريم وجوده ، وروى عن طائفة من علمائها المبرزين فى علوم القرآن والنحو والصرف واللغة ، ثم عاد إلى مراكش ، وهو يقول فى كتابه إنه ما زال متردداً بين المدينتين حتى عبر البحر إلى الأندلس سنة ٦٠٣ هـ

وبالرغم من أنه ولد فى مراكش فهو لا يتعصب لها ، ويؤثر عليها مدينة فاس ، ويقول عنها « ومدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان بعيث العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت المنصور محمد بن أبى عامر وابنه رحل من هذه ومن هذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة ، فنزل أكثرهم مدينة فاس ، فهى اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات فى ذلك الإقليم ، وما زلت أسمع المشايخ يدعونها « بغداد المغرب » وبحق ما قالوا ذلك ، فإنه ليس بالمغرب من أنواع الظرف واللباقة فى كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها ،لايدفع هذا القول أحد من أهل المغرب، فالرجل منصف كما ترى لا يتعصب لبلد لأنه ولد به ولا يتحامل على غيره لأنه لم يشرف بأن يكون أول أرض مس جلده الطاهر الزكى ترابها .

وقد أدرك بالأندلس جماعة من الفضلاء من « أهل كل شأن » على حد تعبيره ، ويجرى على نهجه فى التواضع فيقول « ولم أحصل بحمد الله من ذلك كله إلا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم وعلومهم . انفردوا دونى بكل فضيلة ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم » .

وقبل رحلته إلى الأندلس وسنه لا تتجاوز الرابعة عشرة لقى فى مراكش الوزير الأندلسى أبا بكر بن زهر ، وكان وفد على مراكش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف وذلك فى سنة ٥٩٥ هجرية ، وقد سأله الوزير الأندلسى عن اسمه ونسبه ، ويقول عبد الواحد عن هذا اللقاء « فتسميت له وانتسبت ، وتسمى لى هو رحمه الله وانتسب من غير استدعاء تواضعاً منه وشرف نفس ، وتهذيب خلق » وكان حينذاك قد نيف على الثمانين ، وقد أنشده هذا الوزير المتواضع المهذب هذه الأبيات الرقيقة التى تعد من مستجاد الشعر .

إنى نظرت إلى المرآة إذا جليت ... فأنكرت مقلتاى كل ما رأتا
رأيت فيها شيخاً لست أعرفه ... وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى
فقلت أين الذى بالأمس كان هنا ... متى ترحل من هذا المكان متى
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة ... أن الذى أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادى يا أخى وقد ... صارت سليمى تنادى اليوم يا أبتا

وقد أتحفه الوزير الأندلسى ببعض أخبار الأديب الأندلسى البارع عبد المجيد ابن عبدون صاحب القصيدة المشهورة فى رثاء بنى الأفطس من ملوك الطوائف بالأندلس ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

والخبر الذى رواه عبد الواحد بطريقته القصصية البارعة نقلا عن ابن زهر يدل من ناحية على قوة ذاكرة ابن عبدون الذى كان كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى أيسر محفوظاته ، ومن ناحية أخرى يدل على تعظيم الأندلسيين لرجال الأدب وحملة الأقلام .

وكان عبد الواحد يحرص على لقاء نوابغ الرجال واستماع غرائب الأخبار وشائق الأنباء ، ويدونها أو يختزنها فى ذاكرته الواعية ، وقد تحدث فى كتابه عن شاعر من شعراء فاس اسمه محمد بن حبوس كانت طريقته فى الشعر على نحو طريقة ابن هانىء الأندلسى فى اختيار الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التقعير ، وروى لنا أن ابن هذا الشاعر — واسمه عبدالله — قرأ عليه هذه الحكاية من خط أبيه . قال(١) « دخلت مدينة شلب ولى يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئا ، فسألت عمن يقصد إليه فيها ، فدلنى بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سحاءة ودواة فأعطانيها ، فكتبت أبياتاً أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو فى الدهليز ، فسلمت عليه فرحب بى ورد على أحسن رد ، وتلقانى أحسن لقاء وقال « أحسبك غريباً » قلت نعم . فقال لى

---

(١) المعجب صفحة ٢١٤ .

« من أى طبقات الناس أنت ؟ » فأخبرته أنى من أهل الأدب ، من الشعراء ، ثم أنشدته الأبيات التى قلت ، فوقعت منه أحسن موقع ، فأدخلنى إلى منزله وقدم إلى الطعام ، وجعل يحدثنى . فما رأيت أحسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقا حتى وضعه بين يدى . ففتحته فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية فدفعها إلى وقال « هذه لك ! » ثم دفع إلى صرة فيها أربعون مثقالا وقال « هذه من عندى! » فتعجبت من كلامه وأشكل على جداً ، وسألت من أين كانت هذه لى ؟ فقال لى « سأحدثك : إنى أوقفت أرضا من جملة مالى للشعراء عليها فى كل سنة مائة دينار ، ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتوالى الفتن التى دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك ، وأما هذه فمن حر مالى» يعنى الأربعين ديناراً فدخلت عليه جائعاً فقيراً وخرجت منه شبعان غنياً » .

وفى سنة ٦٠٣ لقى فى مراكش يحيى ابن الفيلسوف الأندلسى الكبير أبى بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة الإسلام المعدودين ، ومؤلف رسالة « حى بن يقظان » وقد أسمعه يحيى هذا بعض أشعار أبيه الفيلسوف فى الحكمة والزهد ، ولقى كذلك بعض تلامذة ابن رشد ، وروى ماسمعه عنهم من أخبار هذا الحكيم وعلاقته بابن طفيل وكيف شجع ابن طفيل ابن رشد على تلخيص كتب أرسطو ، ووصف لنا مثول ابن رشد بين يدى أمير المؤمنين يوسف أبى يعقوب نقلا عن أحد تلامذته والحديث الذى دار بينهما بحضور ابن طفيل ، وقد تحدث فى موضع آخر من الكتاب عن محنة ابن رشد فى عهد أمير المؤمنين أبى يوسف يعقوب ابن يوسف ويقول عنها[1] « كان لهذه النكبة سببان جلى وخفى ، فأما سببها الخفى وهو أكبر أسبابها فإن الحكيم أبا الوليد — رحمه الله — أخذ فى شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس صاحب كتاب المنطق ، فهذبه وبسط أغراضه وزاد فيه ما رآه لائقاً به ، فقال فى هذا الكتاب عند ذكر الزرافة وكيف تتولد وبأى

(١) المعجب صفحة ٣٠٥ .

أرض تنشأ ! «وقد رأيتها عند ملك البربر ... » جارياً فى ذلك على طريقة العلماء فى الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم ، غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلو الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق ، فكان هذا مما أحنقهم عليه . غير أنهم لم يظهروا ذلك ، وفى الجملة فإنها كانت من أبى الوليد غفلة ، فقد قال القائل « رحم الله من عرف زمانه فانه ، ومن مكانه فكانه ! وما أحسن ما قال الأول :

وأنزلنى طول الندى دار غربة إذا شئت لاقيت الذى لا أشاكله
فحامقته حتى يقال سجيـــة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

واستمر الأمر على ذلك إلى أن استحكم ما فى النفوس ، ثم إن قوما ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدعى معه الكفاءة فى البيت وشرف السلف سعوا به عند أبى يوسف ، ووجدوا إلى ذلك طريقاً بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التى كان يكتبها ، فوجدوا فيها بخطه حاكيا عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة ... » فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة ، فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة ، فلما حضر أبو الوليد — رحمه الله — قال له بعد أن نبذ إليه الأوراق « أخطك هذا ؟ » فأنكر ! فقال أمير المؤمنين « لعن الله كاتب هذا الخط ! » وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه على حالة سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم فى شيء من هذه العلوم ، وكتبت عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناس فى ترك هذه العلوم جملة واحدة ، وبإحراق كتب الفلاسفة كلها ، إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة ، فانتشرت هذه الكتب فى سائر البلاد وعمل بمقتضاها ، ثم لما رجع إلى مراكش نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم الفلسفة ، وأرسل يستدعى أبا الوليد من الأندلس إلى مراكش للإحسان إليه والعفو عنه ، فحضر أبو الوليد — رحمه الله — إلى مراكش فمرض بها مرضه الذى مات منه رحمه الله وكانت وفاته بها فى آخر

سنة ٥٩٤ وقد ناهز الثمانين رحمه الله ثم توفى أمير المؤمنين أبو يوسف بعد هذا التاريخ بيسير وكانت وفاته فى غرة صفر فى سنة ٥٩٥ » .

وفى سنة ٦٠٥ حينما كان عبد الواحد بالأندلس قدمه صديق له اسمه محمد بن الفضل — وكان من الكتاب — إلى الأمير ابراهيم بن أمير المؤمنين أبى يوسف ، وكان هذا الأمير فى ذلك الوقت حاكم إشبيلية ، ويقول عبد الواحد عن هذا الأمير(١) « وهو خير ولد أبى يوسف وأجدرهم بالأمر لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطراح الهوى ، لا أعلم فيهم أنجب منه ، وكان لى — رحمه الله — محباً وبى حفياً ، وصلت إلى منه أموال وخلع جمة غير مرة ، لم أعرفه أيام وزارته ، لأنى كنت إذ ذاك حديث السن جدا كما ناهزت الاحتلام ، وإنما كانت معرفتى به حين ولوه إشبيلية فى سنة ٦٠٥ ، وقد أنشده عبد الواحد أول يوم لقيه قصيدة مدحه بها أولها :

لكمو على هذا الورى التقديم ... وعليهمو التفويض والتسليم

الله أعلاكم وأعلى أمره ... بكمو وأنف الحاسدين رغيم

احييتمو المنصور فهو كأنه ... لم تفتقده معالم وعلوم

ومنابر ومنابر ومحارب ... وحمى يحاط وأرمل ويتيم

ويقول عبد الواحد فى كتابه إنه لم يبق على خاطره من هذه القصيدة سوى أبيات قليلة لتقادم عهدها وقلة اعتنائه بها ، وإن الأمير قد استحسنها وبالغ فى الثناء عليها تفضلا منه وسؤددا وجريا على سنن الأجواد ، هذا كله مع ركاكتها وقلة انطباعها وظهور تكلفها » .

ونرى من هذا الكلام أن عبد الواحد لم يكن مفتونا بشعره مثل الكثيرين ممن يتعاطون نظم الشعر ، وإنى أوافقه على تواضعه فى هذه المرة ، وشعر عبدالواحد بوجه عام لا ينم على شاعرية أصيلة ولا ملكة فنية ممتازة ، والظاهر أن الأمير

(١) المعجب صفحة ٣٠٨ .

إبراهيم لم يرقه من القصيدة إلا ما تضمنته من مدح ، على أننا نحب أن نقف قليلا عند قول عبد الواحد عن الأمير إبراهيم إنه « أجدرهم بالأمر — من أولاد أبي يوسف — لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق وأطراح الهوى » ومعنى ذلك أنه كان يرى الأمير إبراهيم أحق بأن يكون أمير المؤمنين من أخيه أبي عبد الله محمد الناصر الذي ولى أباه في الإمارة،وقد اتصل عبد الواحد بأمير آخر من أمراء أسرة عبد المؤمن ، وهو الأمير يحيى بن أمير المؤمنين أبي يعقوب ويقول عبد الواحد[1] « إنه كان صديقاً لى ومن جهته تلقيت أكثر أخبارهم (أى أخبار أمراء الموحدين) لم أر في الملوك ولا في السوقة مثله رحمة الله عليه ، وما استجزت لفظة الصداقة مع أن الواجب لفظة الخدمة إلا لما كان رحمه الله يكتب إلى : أخى وصديقى في بعض الأوقات وولدى في بعضها ، اجتمعت عندى بخطه رقاع كثيرة خلع على فيها فضله وحلانى بما لم أكن أستحقه » .

وفي آخر يوم من سنة ٦١٣ ودع عبد الواحد صديقه الأمير إبراهيم وودع المغرب والأندلس جميعا وركب البحر إلى الشرق ، وعمره يومئذ اثنتان وثلاثون سنة ، ويقول قبل الإشارة إلى هذا الوداع[2] « ثم علت حالى عنده — إلى أن كان يقول في أكثر الأوقات « والله إنى لاشتاقك إذا غبت عنى أشد الشوق وأصدقه ! ثم لم تزل حالى معه على هذا إلى أن فارقته — رحمة الله عليه — وهو وال على إشبيلية ولايته الثانية ثم اتصلت بى وفاته وأنا بصعيد مصر سنة ٦١٧هـ ولم أر في العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك أنقل منه للأثر » .

ولم يذكر لنا عبد الواحد الأسباب التى حملته على هذا الارتحال وهو مستمتع بثقة الأمير حائز رضاه ، وأكبر الظن أنها أسباب سياسية قاهرة لم يكن له ولا لصاحبه حيلة في معالجتها ، والتغلب عليها ، وانقطع عبد الواحد عن المغرب منذ ذلك التاريخ .

---

(١) المعجب صفحة ٢٤٥ .

(٢) » » ٣٠٩ .

وزار عبد الواحد مصر ، وقضى بها سنوات ، وتجول فى أنحائها ، وجاس خلالها ، وزار مكة وبغداد وألف هذا الكتاب لسيد مجهول قد يكون من الوزراء العباسيين ، وهو يشير فى المقدمة إلى أن هذا السيد قد توالت عليه نعمه ، وأنه أخذ بضبعه من حضيضى الفقر والخمول ، وقد سأله هذا السيد إملاء أوراق تشمتل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره وشىء من سير ملوكه وخصوصاً ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن من لدن ابتداء دولتهم إلى سنة ٦٢١ هـ ، وأن يضيف إلى ذلك نبذاً عمن لقيهم من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل ، ولم ير عبد الواحد بداً من المسارعة إلى مافيه رضا هذا السيد المتفضل .

ولم يكن الرجل سعيدا بهذا التشريد الذى تدل ظواهر الأمور على أنه فرض عليه فرضاً وألزم به إلزاماً ، فهو يعتذر عما يكون قد وقع من تقصير فى كتابه بقوله بعد أن أشار إلى ضعف عبارته وغلبة العى على طباعه ، وعدم وجو كتب ومراجع ليستأنس بها فى كتابته « والوجه الثالث أن محفوظاتى فى هذ الوقت على غاية الاختلال والتشتت ، أوجبت ذلك هموم تزدحم على الخاطر ، وهموم تستغرق الفكر » وفى عهود اضطراب الحكم تكثر الدسائس والمؤامرات وتسوء الظنون ، وكان عهد ولاية أبى يعقوب يوسف بن محمد الموحدى الذى ارتحل عبد الواحد إلى المشرق فى خلاله من عهود الاضطراب والقلق فقد بويع وسنه يومئذ ست عشرة سنة ويقول عبد الواحد عن هذه البيعة « لا أدرى[1] أبعهد أبيه إليه أم لا لأنى أعلم أن أباه كان كثير الانحراف عنه فى آخر أيامه لما كان يسمع من سوء أخباره » ويصفه عبد الواحد بالشهامة واليقظة وحدة النفس .

وقد كثر الطامعون فى الحكم وبدأت تشتد عوامل الاضطراب التى عصفت فيما بعد بدولة الموحدين .

وقد فرغ عبد الواحد من املاء كتابه يوم السبت لست يقين من جمادى

---

(١) والمعجب صفحة ٣٢٥

الآخرة من سنة ٦٢١ وتنقطع بعد ذلك أخبار عبد الواحد وتختفى شخصيته من التاريخ فلا يعرف عنه شيء ولا ندرى سنة وفاته ولا بأى أرض مات ، وقد عاش عبد الواحد فى مختلف أنحاء الدولة التى أرخ لها ، ولم يكن تحت ظل سلطانها حينما كتب كتابه ، أى أنه كان حراً يستطيع أن يكتب ما يشاء دون أن يستهدف لغضب أمير أو يسوء أحداً من أصحاب المناصب الكبيرة ، ولذا نلمح أنه فى كتابه نزيه محايد ، وإذا كان فى بعض الأحيان يكيل المدح وينظم عقود الثناء فمرد ذلك إلى إعجابه الصادق وتقديره الخالص ، وعلو صفات الممدوح وسابق علاقته الودية به وما أضفاه عليه من رعايته ، ويمكننا أن نثق بما قاله عن نفسه وأثبته فى تأليفه وهو(١) « لم أثبت فى هذه الأوراق إلا ما حققته نقلا عن كتاب أو سماعا من ثقة عدل أو مشاهدة بنفسى ، هذا بعد أن تحريت الصدق ، وتوخيت الإنصاف فى ذلك كله ، وجهدت ألا أنقص أحداً ذرة مما له ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه ، وبالله أستعين وإياه أسأل وإليه أضرع فى إلهام الصواب والسداد فى القول والعمل فهو حسبى ونعم الوكيل »

وقد أخرج العلامة دوزى الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٨٤٧ ثم طبع الكتاب بعد ذلك فى مصر طبعتين باسم تاريخ الأندلس ينقصهما التحقيق ، ثم طبعه دوزى طبعة ثانية وعن طبعة دوزى أخرجته شركة النشر المغربية بفاس سنة ١٩٣٨ ثم طبع بعد ذلك فى مصر سنة ١٩٥٠ بعد أن ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى ، وقد فرغ المراكشى من إملاء كتابه كما ذكرت فى سنة ٦٢١ قبل انتهاء أجل دولة الموحدين ببضعة واربعين عاما فرأى الاستاذان تكميل هذا النقص فوصفا الأحداث التى جرت على دولة الموحدين منذ ذلك العهد إلى سقوطها سنة ٦٦٨ .

ويقول دوزى إننا يمكننا أن نثق بقول عبد الواحد إنه لم يذكر فى كتابه إلا ما شاهده بنفسه وما سمعه من الثقات وإن مقدمة الكتاب صحيحة وجديرة

---

(١) المعجب صفحة ٣٣٢ / ٣٣٣

بالثقة بوجه عام ، وإنه قد استفاد من كتاب جذوة المقتبس للحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ وعبد الواحد نفسه يقرر ذلك قائلا [١] « عليه عولت فى أكثر ذلك ومن كتابه نقلت ، خلا مواضع تبينت غلطه فيها أصلحتها جهد ما أقدر »

وتصحيحاته للحميدى قليلة ، ويقول دوزى إن كلام عبد الواحد عن ملوك الطوائف سطحى ولا يجب أن نعتمد عليه كل الاعتماد فهو مثلا يقول إن سقوط طليطلة كان سنة ٤٧٦ والواقع أنه كان سنة ٤٧٨ ويقول إن خيران حكم المرية بعد زهير والعكس هو الصواب فزهير جاء بعد خيران ، وفى تاريخ المرابطين جهل وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ والحقيقة أنه مات سنة ٥٠٠ أما ما كتبه عن الموحدين فهو موضع الثقة وله قيمة كبيرة ، ومهما يكن من الأمر فإن كتاب المعجب كاف فى تخليد ذكرى هذا الرجل الممتاز الذى أرخ دولة ، وأحصى أخبار أمة وأنسى بعد ذلك التاريخ ذكره ، وأهمل أمره ، فلم يجد من يسجل أخبار حياته أو يعرف حتى سنة وفاته .

(١) المعجب صفحة ٦٩

ياقوت الحموى أو المؤرخ الجامع

فى مطالع القرن السابع الهجرى بدأت تظهر فى الشرق الأقصى قوة جديدة وهى الدولة المغولية التى أسسها هذا البناء البارع القدير ، والهدام المتلف المبير الذى عرفه التاريخ باسم جنكيز خان ، وسرعان ما استرعت هذه الدولة الناشئة أنظار الدول المجاورة لها ، وأثارت اهتمامها وأنذرتها بالخطر الذى يترقبها ،وتوقع البلاء الذى يتهددها ، وكانت تفصل هذه الدولة المرهوبة الجانب عن أقرب الدول الإسلامية منها دولة الخطا ، ولكن الدولة الناشئة عمدت إلى إخضاع دولة الخطا وضمتها إلى رقعتها الآخذة فى الاتساع ، وبذلك أصبحت حدودها متاخمة لحدود الدولة الإسلامية التى كانت قريبة منها ، وهى الدولة الخوارزمية ، وكان لابد من تصادم هاتين القوتين ، فقد كانت الأسباب الداعية إلى ذلك متوافرة من الناحيتين، وفى سنة ٦١٦ هجرية أخذت جموع المغول الحاشدة وجيوشهم الجرارة تكتسح الدولة الخوارزمية المترامية الأطراف ، وعجزت جيوش علاء الدين شاه خوارزم عن دفع هذه الغارات الشعواء ، ورد هذا السيل العرم المغرق الجارف . وكان هجوم المغول على هذه الدولة الاسلامية التعسة المرزأة عنيفا غاية العنف ، قاسياً نهاية القسوة ، فاستباحوا أهلها ، وأوسعوهم تعذيباً وتقتيلا ، ومثلوا بهم أفظع تمثيل وهدموا المدن العامرة ، وخربوا العواصم المزدهرة ، وأسرف المغول فى سوم الناس الهوان ، وإتيان المنكرات ، حتى قال عميد مؤرخى الاسلام فى هذه الفترة ابن الأثير عن هذا الهجوم المغولى إنه الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ،مؤكدا أن التواريخ لم تتضمن ما يقارب هذه الكارثة أو ما يدانيها ، وقد أتم جنكيز خان إخضاع الدولة الخوارزمية فى مدى أربع سنوات ، ففى سنة ٦٢٠ عاد أدراجه وعبر نهر سيحون متوجهاً إلى منغوليا .

وقبل أن تتجمع هذه العاصفة المدمرة بعامين كان يجلس فى أحد أسواق دمشق رجل قد شارف الأربعين من عمره ، وهى السن التى يبدأ الإنسان يشعر فيها

بأثر الكهولة فيحلم بعد جهل ، ويعتدل بعد الإسراف على نفسه ، وتهدأ سورته ، ويقل جماحه ، ولكن صاحبنا هذا الجالس فى السوق كان على فضله ، وغزارة علمه ، وسعة معرفته ، لا يخلو من بعض الحمق والطيش ، وحدة الطبع وجفوة الخلق ، وكان قد أكثر من الاطلاع على كتب الخوارج ، وتأثر بآرائهم ، وجاراهم فى تعصبهم على الإمام الرضى ، والمثل النادر فى نبالة المنزع وسمو الأخلاق على ابن أبى طالب ، فجرت مناظرة بينه وبين أحد المعجبين بالوصى ، وحمى وطيس الجدل بينهما ، ففقد صاحبنا توازنه ، واندفع يذكر الإمام الجليل بما لا يسوغ ولا يليق بمقامه الرفيع ومكانته فى النفوس ، فأثار ذلك غضب الناس حتى هموا بقتله ، ووجد صعوبة كبيرة فى النجاة بحياته والخروج من دمشق ، والهرب من الوالى الذى جد فى طلبه ليعاقبه على ما بدر منه .

وقد خرج من دمشق مستتراً متخفياً خائفاً مرعوباً حتى وصل إلى حلب ولم تطل إقامته بها ، وخرج منها إلى الموصل ، ثم انتقل إلى أربل ، وسار منها إلى خراسان .

كان اسم هذا الرجل ياقوت ، وكان يلقب بشهاب الدين ، وقد نشأ نشأة غير عادية . فهو رومى الجنس ، وقد أسر من بلاده وهو صغير ، وحرم عطف والديه وعانى قسوة النخاسة ، وقد ابتاعه ببغداد رجل تاجر اسمه عسكر بن أبى نصر وكان هذا التاجر لا يحسن الخط ، ولا يعرف شيئاً سوى التجارة . وكان مقيما ببغداد ، وقد تزوج بها ورزق عدة من الأولاد ، وقد أراد هذا التاجر أن ينتفع بهذا الغلام الرومى فى ضبط تجارته ، وقيد حساباته وإمساك دفاتره ، ولما كبر ياقوت شدا شيئاً من النحو واللغة ، واستعان به مولاه فى أسفاره ، وشغله بها فى متاجره ، فكثر تردده إلى كيش وعمان وسائر نواحى الخليج الفارسى ، وكان يعود من هذه الأنحاء إلى الشام ، ونرى من ذلك أن هذا الرجل بدأ يدرس الجغرافية منذ نشأته دراسة عملية كان لها تأثير بعيد فى حياته واتجاهات تفكيره ، ثم وقع خلاف بينه وبين مولاه ، وربما كان سببه ما فى طباعه من حدة ، وما خلفته

طفولته القاسية فى نفسه من مرارة وألم وعقد نفسية ، وكان ياقوت حينذاك فى بواكير الشباب وريعان الفتوة ، فاشتغل بالنسخ بالأجرة ، وأفاد من مطالعة الكتب وأمعن فى البحث والدرس والاستقصاء معتمداً على نفسه ، فلا نعرف له مدرسة انتسب إليها سوى مدرسة الحياة ، ولا نعرف له شيخاً تخرج عليه ، سوى نسخ الكتب وقراءتها والاشتغال ببيعها ، وعاد مولاه فأسبغ عليه عطفه وقربه منه وأعطاه شيئاً من المال وأرسله إلى كيش . ولما عاد ياقوت من هذه الرحلة كان مولاه قد فارق الحياة . فأعطى أولاد مولاه وزوجته ماأرضاهم به ، واحتفظ لنفسه ببقية جعلها رأس مال له ، وسافر بها وهو يشتغل بالتجارة ، وقد جعل الكتب جانباً من تجارته ، وكان فى أثناء ذلك مكباً على الاطلاع موالياً البحث مثابراً على التحصيل والدرس ، وتقلبت على عينه الدنيا ، وطوحت به طوائح الزمن ، حتى رأيناه فى سوق دمشق يناظر ويجادل ويهفو فى حومة المناقشة تلك الهفوة التى كلفته الكثير وأرغمته على الارتحال إلى خراسان دون أن يعرج على بغداد لأن المناظر له بدمشق كان بغدادياً ، وخشى ياقوت أن يذاع عنه ببغداد ما صدر منه بدمشق فيحدث ما لا تحمد عقباه .

ولما انتهى إلى خراسان أخذ يتنقل فى بلادها مشتغلا بالتجارة ، دائباً فى مراجعة الكتب وجمع المعلومات وتحصيل الفوائد ، واستوطن مدينة مرو حينا من الزمن ثم انتقل منها إلى مدينة نسا ، ومضى منها إلى خوارزم ، وكانت الأمور فى أثناء ذلك قد تعقدت فى أقاصى الشرق ، وساءت العلاقات بين الدولة الخوارزمية ودولة المغول ، وشرع المغول فى هجومهم العنيف وعدوانهم الشديد . وصادف قدومه إلى خوارزم إقتراب الجيوش المغولية منها ، وتراجع الخوارزميين . فانهزم ياقوت بنفسه . وقاسى فى طريقه من المتاعب والأهوال ما يكل عنه الشرح ، ولا يبلغه الوصف ، ووصل بعد هذه الرحلة الشاقة المحفوفة بالأخطار إلى الموصل ، وقد تقطعت به الأسباب ، وأعوزه دنىء المأكل وخشن الثياب كما يقول عنه ابن خلكان ، وقد وصف لنا هذه الرحلة المضنية فى رسالة أدبية ممتازة كان كتبها وهو فى الموصل إلى أبى الحسن القفطى مؤلف كتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » وغيره من

الكتب القيمة ، وهو يتحدث فى هذه الرسالة عن إقامته بمرو الشاهجان ويقول « إنه وجد بها من كتب العلوم والآداب وصحائف أولى الأفهام والألباب ماشغله عن الأهل والوطن . وأذهله عن كل خل صفى وسكن ، وإنه ظفر منها بضالته المنشودة ، وبغية نفسه المفقودة ، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص ، وقابلها بمقام لا يزمع عنها محيص ، فجعل يرتع فى حدائقها ، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها ، ويسرح طرفه فى طرفها ، ويتلذذ بمبسوطها وتتفها » وذكر فى هذه الرسالة أنه كان ينوى أن يقيم فى خراسان بقية عمره لولا ماحدث بها من الخراب ، وأصابها من المحن والأرزاء ، ويصفها بقوله « كانت بلاداً مونقة الأرجاء ، رائقة الأنحاء ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، قد تغنت أطيارها ، وطاب روح نسيمها فصح مزاج إقليمها » ويسترسل فى وصفها وصفاً شعريا يقول فى ختامه ، « وجملة أمرها أنها كانت أنموذج الجنة بلا مين ، فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ العين ، قد اشتملت عليها المكارم ، وأرجحنت فى أرجائها الخيرات الفائضة للعالم » .

ثم يصف أهلها بكرم الأخلاق ونبل الطباع ويقول عنهم « أطفالهم رجال ، وشبابهم أبطال ، ومشايخهم أبدال ، شواهد مناقبهم باهرة ، ودلائل مجدهم ظاهرة » ثم يصف الكارثة التى حلت بهم من جراء اجتياح الجيوش المغولية لبلادهم بقوله « أصبحت تلك القصور كالممحو من السطور ، وأمست تلك الأوطان ، مأوى للأصداء والغربان ، يتجاوب فى نواحيها البوم ، ويتفاوح فى أراجيها الريح والسموم ، ويستوحش فيها الأنيس ، ويرثى لمصابها إبليس » .

ويصف أثر هذه الكارثة فى نفسه فيقول « فإنا لله وإنا إليه راجعون ، من حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ، وتوهى الجلد ، وتضاعف الكمد ، وتشيب الولد ، وتنخب لب الجليد ، وتسود القلب ، وتذهل اللب » .

ويصف تقهقره ناكصاً على عقبه بقوله « تقهقر المملوك بقلب واجب ، ودمع ساكب ، ولب عازب ، وحلم غائب ، فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل ، بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار ، وتمحيص الأوزار ، وإشراف غير مرة على

البوار والتبار ، لأنه مر بين سيوف مسلولة ، وعساكر مفلولة ، ونظام عقود محلولة ، ودماء مسكوبة مطلولة ، وجملة الأمر أنه لولا فسحة فى الأجل ، لعز أن يقال سلم اليائس أو وصل ».

وهو فى ختام هذه الرسالة البليغة . يستنجد بالقفطى ، ويرجوه أن يفيئه ظل رعايته ، ويأخذ بضبعه فى شدته ومحنته ، ويصرح بأنه « قد ضعفت قواه عن درك الآمال ، وعجز عن معاركه الزمان والنزال ، إذ ضمت البسيطة إخوانه ، وحجب الجديدان أقرانه ، ونزل المشيب بعذاره ، وضعفت قوى أوطاره » .

وقد أقام ياقوت فى الموصل مدة مديدة ، ثم انتقل منها إلى سنجار ، وارتحل من سنجار إلى حلب ، وأقام بظاهرها .

ويروى لنا القفطى أن ياقوتا لما وصل إلى حلب دخل عليه فى حالة يشق منظرها وقال له « إنى قد ألقيت عصاى ببابك ، وخيم أملى بجانب جنابك » ، ويذكر لنا القفطى أنه أكرم وفادته ، وضغط على نفسه ، وجشمها احتمال ما ذكره عن طيشه وأخلاقه الخلقة ، وانحرافاته المذهبية ، وقد ترجم ياقوت للقفطى فى معجمه وأثنى عليه ثناء مستطابا ، وقدره تقديراً جميلا ، أما القفطى فقد كتب عنه فى كتاب إنباه الرواة كتابة الزارى المستخف والمنعم الممتن ، ونال من علم ياقوت وأخلاقه ، ولست أدرى أكان ذلك منه تحرياً للحق وإيثاراً للصراحة وإنصافا للتاريخ أم كان ذلك منه بدافع المنافسة الأدبية وما تجره من مجافاة الإنصاف وانتقاص الأقدار ، وقد سافر ياقوت من حلب إلى مصر فى تجارته المعهودة ، ثم عاد إلى حلب وأقام بها حتى وافته منيته فى سنة ٦٢٦ .

والعجيب فى أمر هذا الرجل الذى عاش هذه العيشة القلقة المضطربة أن ترك طائفة من الكتب بينها كتابان يعدان من أنفس الكتب فى المكتبة العربية ، وهما كتاب معجم الأدباء الذى سماه ياقوت « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » وكتاب « معجم البلدان » .

وقد جمع فى كتاب معجم الأدباء ما وقع له من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والأخباريين والمؤرخين والوراقين والكتاب المعروفين وأصحاب الرسائل وكل من صنف فى الأدب تصنيفاً ، أو ألف فيه تأليفاً ، وذكر فى مقدمة الكتاب أنه آثر الاختصار وتوخى الإيجاز ، ولم يأل جهداً فى إثبات الوفيات ، وتبيين المواليد والأوقات ، وذكر تصانيف الذين ترجم لهم ، ومستحسن أخبارهم ، وبعض المختار من شعرهم والمستجاد من نثرهم، ولم يذكر الأسانيد إلا فيما ندر ، لأنه قصد صغر الحجم ، وكبر النفع ، وقد أثبت مع ذلك مواضع أخذه ومواطن نقله ، وهو يحاول أن يسوغ عمله فيقول فى المقدمة «هذه أخبار قوم أخذ عنهم علم القرآن المجيد والحديث المفيد ، وبصناعتهم تنال الإمارة ، وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الإسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام» وهو فى الجملة مرجع من المراجع الهامة لدارسى الأدب والتاريخ .

وقد أفادته أسفاره ورحلاته فى إيران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر وخراسان ، ومكنته من جمع المواد اللازمة لكتابه الآخر القيم النادر وهو كتاب «معجم البلدان» وقد ذكر لنا فى المقدمة التى قدم بها لهذا الكتاب النفيس الباعث على تأليفه ، وهو اختلاف الناس فى ضبط أسماء البلدان والأمكنة والبقاع ، وألقى فى روعه افتقار العالم إلى كتاب فى هذا الشأن يرجع إليه ويعتمد عليه ، وقد آنس من نفسه القدرة على الاضطلاع بهذه المهمة الشاقة . والظاهر أنه بدأ التأهب للقيام بهذا العمل سنة ٦١٥ وهو بمرو الشاهجان ؛ وذكر فى المقدمة أنه اعتمد فى تأليف كتابه وجمع مواده على ما دونه كبار الجغرافيين من المسلمين أمثال ابن خرداذبة والبلخى والإصطخرى وابن حوقل والبكرى ودواوين العرب والمحدثين ، وتواريخ أهل الأدب وما تلقاه من أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهده بنفسه فى أسفاره وتطوافه ، ورتبه على

(١) معجم الأدباء الجزء الأول صفحة ٥٣ .

حروف المعجم . ولقد روى ياقوت فى معجمه بعض الخرافات الذائعة فى عصره .

وقد اعتذر عن ذلك فى مقدمة معجمه فقال « لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة ، وأنا مرتاب بها متبرئ إلى قارئها من صحتها ، لأنى كتبتها حرصاً على إحراز الفوائد ، فإن كانت حقاً فقد أخذنا فيها بنصيب المصيب ، وإن كانت باطلا فلها فى الحق شرك ونصيب ، فأنا صادق فى إيرادها كما أوردتها » فهو قد أورد ما سمع كما وعاه ، وهو راوية أحاديث والعهدة فيها على من روى عنهم تلك الأحاديث ، والكذاب هو الذى يضع الأحاديث ويخترعها اختراعا ، وقد استغرق تأليف هذا المعجم سنوات . واقتضاه جهداً ناصباً . وكان يود مضاعفة حجمه وزيادة فوائده . ولكنه كان قد تطاولت به السن . وأحس أن الاستيعاب شىء لا يفى به طول العمر . فاكتفى بما جمعه « والعين طامحة والهمة إلى طلب الازدياد جامحة » وهو ينهى من اطلع على كتابه عن اختصاره لأن المختصر لكتاب فى رأيه كمن أقدم على خلق سوى فقطع أطرافه « فتركه أشل اليدين ، أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصلم الأذنين » وقد أهدى كتابه إلى خزانة القفطى لانه كما يقول « رد عنه صرف الدهر والمحن ، وأصبح من كنفه فى حرز حريز » .

وقد روى له صاحب الوفيات بعض أبيات من الشعر ، ولكن شعره على قلته لم يكن من الشعر الجيد المطبوع . وهو نفسه لم يدع التقدم فى الشعر . وقد صدر بعض أبيات له بقوله(١) « مع اعترافى بقلة بضاعتى فى الشعر وعلى بركاكة نظمى والنثر » وربما كان من جيد نظمه قوله فى الشكوى :

تنكر لى مذ شبت دهرى فأصبحت ... معارفه عندى من النكرات
إذا ذكرتها النفس حنت صبابة ... وجادت شئون العين بالعبرات

---

(١) معجم الأدباء الجزء الأول صفحة ٥٨ .

إلى أن أتى دهر يحسن ما مضى ويوسعنى من ذكره حسرات
فكيف ولما يبق من كأس مشربى سوى جرع فى قعره كدرات
وكل إناء صفوه فى ابتدائه ويرسب فى عقباه كل قذاة

وياقوت جامع بارع ، يقظ الناقدة ، واسع الاطلاع ، كثير التحصيل . ولكنه ليس من أصحاب النظرات الكاشفة والأفكار العميقة ، والخواطر الملهمة . وهو فى طليعة جامعى المعارف والمعلومات ، ومنسق الأخبار والروايات وناظمى أشتات الفرائد والفوائد ، ومن أقدرهم على ترتيبها وتنظيمها ، وتيسير الاستفادة منها . وسيظل اسمه مذكوراً مشكوراً ما بقى الأدب العربى .

أبو الحسن النباهى أو المؤرخ الفقيه

الكتب الخاصة بتراجم الكتاب والشعراء والأدباء وطبقاتهم وسير رجال الحكم والسياسة وأبطال الميادين والوقائع والفتوح كثيرة موفورة في الأدب العربي ولكن الكتب الموقوفة على حياة حماة العدالة وسدنة القانون والشريعة قليلة نادرة ، ومن هذه الكتب كتاب « تاريخ قضاة الأندلس » لأبي الحسن البناهى المالقي الأندلسي ، وقد سماه كتاب « المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » والظاهر أن الكتب مثل الناس ، منها ما يواتيه الحظ ، ويصادفه التوفيق ، فيظفر بالمكانة المرموقة ، ويحظى بالشهرة البعيدة ، ومنها ما يتخلى عنه الحظ ويخطئه التوفيق ، فيظل مهملا في زوايا الخمول مطرحا في مدارج النسيان ، وقد تشتهر بعض الكتب وتنعم بالرواج والذيوع لا لميزة ظاهرة ، أو أصالة غير منكورة ، أو طرافة في موضوعها بادية ملحوظة ، وإنما لأنها تستجيب لحالة نفسية أو عقلية طارئة .

وكتاب النباهى عن قضاة الأندلس والمغرب من الكتب القيمة التي ظلمها الحظ وجار عليها ، فقد ظل حينا طويلا من الزمن مجهول الشأن ، غامض القدر ، لا يعرفه أحد ، ولا يسمع به حتى المنقرون عن الكتب ، والباحثون عن الأصول والخطوطات ، وبقي هذا حاله ومصيره حتى قدر له من المستشرق المعروف ليفي بروفنسال من يقيل عثرته ، وينهضه من كبوته ، ويبدد عنه أغشية الخفاء ، ويجلو حجب الظلام ، ويشرف على طبعه وبعثه إلى الحياة ، وهو يقول في تصديره « أنشر في هذا السفر أثراً لم يطبع إلى اليوم ، وهو وثيقة عظيمة الخطر عن تأريخ القضاة بالمغرب الإسلامي في العصر الوسيط ، فتأريخ تصنيفه المتأخر مكن مؤلفه من الإحاطة بمدة طويلة من الزمن تمتد من الفتح العربي إلى القرن الثامن الهجري ، غير أن هذا الكتاب رغم اتساع الموضوع الذي تناوله بقي مجهولا إلى يومنا

هذا ، ولا يوجد عنوانه حسب ما أعلم فى أحد المؤلفات التى أحصت الكتب المتعلقة بالأدب العربى ، فلم يذكره حاجى خليفة ولا بروكلمان ، وعبثا يبحث المرء عن أثر له فى مكاتب أوروبا والشرق التى نشرت فهارسها ، وسبب ذلك ولا شك أن الناس لم يتناقلوا منه نسخاً ، وقد جلب عدد قليل منها فى آخر القرون الوسطى من مملكة غرناطة الصغيرة إلى مدن المغرب الأقصى ، وهناك ساعدنى الحظ فاكتشفت منه نسختين خطيتين لهما من الصحة ما كفى لإغرائى بالعمل على نشر الكتاب .

فهذا الكتاب إذا كان مغموراً مجهولا الجهل كله كما يقول ناشره الأستاذ بروفنسال ، ولكن الغريب مع ذلك أن مؤلفه القاضى النباهى كان رجلا معروفا مذكوراً بارز الشخصية بين معاصريه ، موصوفاً بسعة العلم ، وثقوب الفهم ، ونباهة المحتد ، فهو من أسرة استقرت منذ أجيال عديدة بمدينة من أزهر مدن الأندلس الساحلية ، وهى مدينة مالقة ، وقد ولد بها سنة ٧١٣ هجرية ، وعمر طويلا ، ففى سنة ٧٩٢ كما روى لنا المقرى فى أزهار الرياض كان لايزال حيا يرزق ، وهو يقول عنه القاضى[1] «النباهى هو قاضى الجماعة بغرناطة الأمام العالم العلامة ، كان رحمه الله من كبار المشهورين بها ممن له الفصاحة والبلاغة والجلالة إلى الاتصاف بالعلم والمعرفة والتفنن فى العلوم معقولها ومنقولها» .

وقد نشأ النباهى بمالقة ودرس بها على شيوخ مقصودين ، ثم رحل عنها إلى غرناطة لاستكمال ثقافته الفقهية ، ثم غادرها لما ولى القضاء بمدينتين صغيرتين وعاد للاستقرار بها نهائياً عندما عين كاتباً بالديوان فى بلاط ملك غرناطة ، ولم يمض إلا قليل حتى قلده سلطان غرناطة قضاء الجماعة بها ، وهى وظيفة تعادل قاضى القضاة فى البلاد الإسلامية الأخرى .

وقد عاصر النباهى المؤرخ المغربى الكبير العلامة ابن خلدون ، واتصل به ، وسمع منه ، ونقل عنه . وتأكدت العلاقة وتوثقت الرابط بينه وبين معاصره الوزير الشاعر الكبير لسان الدين بن الخطيب ، وتبادلا الرسائل ، وتقارضا

---

(١) أزهار الرياض جزء ٢ صفحة ٥ .

المدح والثناء ، حتى غام بينهما الأفق وأظلم الجو ، ووقعت النبوة ، وعمل كل منهما على تشويه سمعة الآخر وهدم مكانته ، وإزالته من طريقه .

وقد اتهم ابن الخطيب فى عقيدته ، ورمى بالزندقة ، وقد انتهت الدسائس التى حيكت حوله بسقوطه ونكبته وقتله سنة ٧٧٦، والمعروف أن القاضى النباهى كان ضالعاً فى اتهام ابن الخطيب شديد النقد لسلوكه ومواقفه ، ولست واثقاً من أننا نملك من البيانات والمعلومات والوثائق ما يساعدنا على الفصل فى قضية الخلاف الشديد الذى ثار بين القاضى النباهى والوزير لسان الدين وانتهى بهذه النهاية الفاجعة ، وقد كان المقرى من أشد الناس إعجاباً بلسان الدين ، وأعظمهم تقديراً لأدبه وعلمه وربما يكون هذا الإعجاب الشديد هو الذى حمله على أن يقف من هذا الخلاف فى صف صاحبه ابن الخطيب ، كما تنم لهجته حينما يعرض فى النواحى المختلفة من كتاب « نفح الطيب » لهذا الخلاف ، فهو مثلا يقول حينما يتحدث عن نشأة ابن الخطيب(١) « ومن أعدائه الذين باينوه ، بعد أن كانوا يسعون فى مرضاته سعى العبيد القاضى أبو الحسن بن الحسن النباهى فكم قبل يده ، ثم جاهره بعد انتقال الحال وجد فى أمره مع ابن زمرك حتى قتل لسان الدين ، وانقضت دولته فسبحان من لا يتحول ملكه ولا يبيد» . ولست أدرى هل كان القاضى النباهى من هؤلاء الدهاة الأشرار الذين يحكمون الكيد ويجيدون الدس حتى يجهزوا على فريستهم ، أو أنه وجد عن صدق اعتقاد وصحة اقتناع فى أقوال لسان الدين وكتاباته ما يستوجب الاتهام ويسوغ الرمى بالكفر والإلحاد ، ولمس فى سلوكه وتصرفاته ما يثير الريبة ، ويدعو إلى ترك المسالمة والمهادنة والإمعان فى الخصومة والمحاربة ، ومهما يكن من الأمر فإن لسان الدين نفسه قد أثنى على النباهى فى كتاب الإحاطة وغالى بقيمته فقال فى ترجمة السلطان بن الأحمر(٢) « ثم قدم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن ، وهو عين الأعيان بمالقة ، المخصوص برسم

---

(١) نفح الطيب ، الجزء ٧ صفحة ٤٦ .

(٢) نفح الطيب ، الجزء ٧ صفحة ٤٩ .

التجلة والقيام بالعقد والحل ، فسدد وقارب وحمل الكل ، وأحسن مصاحبة الخطبة والخطة ، وأكرم المشيخة مع النزاهة ، ولم يقف من حسن التأتى على غاية فاتفق على رجاحة عقله ولم يقف فى النصح عندغاية، ومن وصفه له حينما ولى القضاء قوله[1] « طاهر النشأة وقورها محمود السجية مشكورها ، حالا من النزاهة بالمكانة الأمينة . ساحباً أذيال الصون . بعيداً عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون » ولما تغير ما بينهما حمل عليه لسان الدين حملات شعواء وأوسعه هجواً وسخرية وعيره بقصر قامته ، ولقبه بالجعسوس ومعناها القصير ، ولم يكتف بذلك بل ألف رسالة خاصة فى هجائه سماها « خلع الرسن فى وصف القاضى أبى الحسن » ولعلها من قبيل هذه المهاترات التى تدل على عقلية كتابها ونفسيتهم قبل أن تنال من مكانة الذين تقال فيهم وتساق إليهم .

ويقول المقرى عن لسان الدين[2] « واعلم أن للسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى الغاية فى المدح والقدح ، فتارة على طريق الترسل ، وطوراً على غيرها ، وقد أقذع وبالغ رحمه الله تعالى فى هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال ، وهو أشد من وقع النبال » .

ومن أقوال النباهى فى مقدمة كتابه « هذا كتاب أرسم فيه بحول الله نبذاً من الكلام فى خطة القضاء ، وسير بعض من سلف من القضاة ، أو بلغ رتبة الاجتهاد وفيمن يجوز له التقليد ومن لا يجوز ، وصفات المفتى الذى ينبغى قبول قوله والاقتداء به ، لمن ذهب إلى مقلده ، وبالجارى بالفتاوى على منهج السداد ، وهل يجوز للمفتى قبول الهدية من المستفتى أم هى فى حقه من ضروب الرشاء المحرمة على الجميع . ولست أجهل أن هذا الغرض قد سبق له غيرى ، وصنف فى معناه أناس قبلى ، لكنى رأيت أن أعيد الآن ما أعيده على جهة التذكرة لنفسى ، والتنبيه لمن هو مثلى ، وحاصل ما أريد إثباته من ذلك فى هذا الكتاب يرجع إلى أربعة

---

(١) نفح الطيب الجزء ٧ صفحة ٦٠ .

(٢) نفح الطيب جزء ٧ صفحة ٦٦

أبواب » هذا مايقوله المؤلف فى المقدمة ، والظاهر أنه لم يكتب إلا جزءاً واحداً من كتابه ، فهو يشير فى المقدمة إلى أن الكتاب سيشمل أربعة أبواب ، ولانجد منها سوى بابين متفاوتين فى الطول غاية التفاوت ، فالباب الأول يبحث فى القضاء عامة ، وفى المسائل التى تتعلق به ، وهو لا يستغرق سوى صفحات قلائل من الكتاب ، والباب الثانى مجموعة تراجم قضاة أكثرهم من الأندلس ، وبعضهم من أهل المغرب ، وهذا الجزء له أهمية بالغة ، فهو يزودنا بحقائق تاريخية قيمة ، ويمدنا بمعلومات نفيسة عن الكثيرين من رجال الأندلس والمغرب ، ولعل الأهم من ذلك كله هو أنه يكشف لنا صفحة باهرة من تقدير الأندلسيين خاصة والمسلمين عامة لمكانة القانون وقداسة القضاء ، ومؤلف الكتاب نفسه يقول فى الباب الأول من كتابه « خطة القضاء فى نفسها عند الكافة من أسنى الخطط ، فإن الله تعالى قد رفع درجة الحكام ، وجعل إليهم تصريف أمور الأنام ، يحكمون فى الدماء والأبضاع والأموال والحلال والحرام ، وتلك خطة الأنبياء ومن بعدهم من الخلفاء ، فلا شرف فى الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء ، ولأجل منيف قدره فى الأقدار ، ولسموخطره فى الأخطار ، اشترط العلماء فى متوليه من شروط الصحة والكمال ما تقرر فى كتبهم واستبعد حصول مجموعة الأئمة المقتدى بهم ، فقد نقل عن مالك بن أنس أنه كان يقول فى الخصال التى لا يصلح القضاء إلا بها « لا أراها تجتمع اليوم فى أحد ، فإذا اجتمع منها فى الرجل خصلتان العلم والورع قدم » ويرى المؤلف أن من قلد الحكم بين الخلق والنظر فى شىء من أمورهم فهو أحوج الناس إلى نور العقل وإلى اتصافه بالتذكير والتيقظ والتفطن ، ومن لم تكن فيه هذه الصفات ليس له أن يلى القضاء ، فلا ينبغى أن يستقضى إلا ذكى فطن فهم متأن غير عجول ، ولذا قال عمر بن عبد العزيز « لا يصلح للقضاء إلا القوى على أمر الناس ، المستخف بسخطهم وملامتهم فى حق الله ، العالم بأنه مهما اقترب من سخط الناس وملامتهم فى الحق والعدل والقصد استفاد بذلك ثمنا ربيحاً من رضوان الله » .

وواضح من ذلك تقدير رجالات الأمة الإسلامية للقضاء وعلو شأنه فى نفوسهم ، وقد لاحظت أثناء اطلاعى على تراجم مشاهير القضاة فى كتاب النباهى أن الكثيرين من العلماء والفقهاء كانوا يتجنبون الاضطلاع بمهمة القضاء ما وسعهم الجهد . ويفرون من احتمال تبعتها الثقيلة فراراً ، وذلك لتقديرهم جلالة خطرها وحاجتها إلى الكثير من الصفات العالية والعلم الجم ، والدراية الواسعة ، وكانوا لتواضعهم وفرط محاسبتهم لأنفسهم وإكبارهم شأن القضاء يرون أنهم غير أهل للقيام بأعباء هذا المنصب العالى ، وتقلد تلك الخطة الشريفة .

وكان الاعتقاد السائد أنه لا ينبغى أن يتقدم للقضاء إلا من وثق بنفسه أو تعين له وأجبره الإمام العدل عليه ، وللإمام العدل إجبار من يصلح للقضاء على قبوله ، وله أن يمتنع عنه إلا إذا تحقق أنه لا يصلح فى تلك الناحية للقضاء سواه ، فلا يحل له الامتناع ، ويفرض عليه فى هذه الحالة قبول القضاء فرضاً ، ومن أقوال عمر بن الحسين « ما أدركت قاضياً استقضى بالمدينة إلا رأيت كآبة القضاء وكراهيته فى وجهه » ويروى فى الصحيح عن أبى ذر « قلت يا رسول الله ألا استعملنى ! » فضرب بيده على منكبى ثم قال « يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » .

فخطورة القضاء كانت تجعل الكثيرين من الفضلاء الأتقياء ذوى الضمائر الحية ينفرون من بلائه ، ويزورون عنه ، وقد سجن بعض الأئمة بسبب امتناعهم عن قبول القضاء ، منهم الإمام أبو حنيفة ، فقد دعاه ابن هبيرة للقضاء فأبى ، فحبسه وضربه أياما كل يوم عشرة أسواط وهو متماد على تأبيه حتى تركه ، ونقل عن عثمان بن عفان بأنه قال لعبد الله بن عمر بن الخطاب « إقض بين الناس » فقال « لا أقضى بين رجلين ما بقيت » فقال له عثمان « لتفعلن » فقال « لا أفعل » قال « فإن أباك كان يقضى » فقال « كان أبى أعلم منى وأتقى » .

ومن عرض عليه القضاء من فقهاء الأندلس فأبى من قبوله « إبراهيم بن محمد

بن بار » فقد دعاه إليه الأمير محمد بن عبد الرحمن لقصة رفعت من قدره عنده فأباه ، فارسل إليه بذلك أحد رجاله المقربين منه فامتنع عليه ولم يجد فيه حيلة ، فأعاد إليه رسوله يقول « إذا لم تقبل قضاءنا فاحضر مجلسنا وكن أحد الداخلين علينا الذين نشاورهم فى أمورنا ونسمع منهم فى رعيتنا » فلما استمع إلى رسالته قال له « إن ألح علىّ الأمير فى هذا ومثله هربت والله بنفسى من بلده فما له ولى ! » فأعرض الأمير عنه عند ذلك .

وقد كان أمير الأندلس عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل من أشد أمراء الأندلس هيبة وأعظمهم صولة ، فلما استشار أصحابه فى قاض يوليه على قرطبة ذكر له ولده هشام المصعب بن عمران ، فأمر بالإرسال إليه ، فلما قدم المصعب أدخله على نفسه بحضرة ولده هشام وخاصة أصحابه ، وعرض عليه القضاء ، فأبى من قبوله ، وذكر أعذاراً تعوقه عنه ، فرده الأمير وحمله على العزيمة ؛ وأصر مصعب على الإباية البتة ؛ فغضب الأمير وأطال الإطراق ، ولكنه استطاع أن يحكم جماح غضبه ونقمته وقال للمصعب « إذهب عليك العفاء وعلى الذين أشاروا بك » .

وممن عرض عليه القضاء فأباه محمد بن عبد السلام الخشنى ، فقد نفر منه نفوراً شديداً ، فحاول الأمير الأندلسى محمد بن عبد الرحمن أن يرغمه على قبوله بالتهديد والوعيد فكتب إليه « إن من عاصانا فقد أحل بنفسه ودمه » فلما قرئت له هذه الرسالة نزع قلنسوته عن رأسه ومد عنقه وجعل يقول « أبيت كما أبت السموات والأرض إباية إشفاق لا إباية نفاق » .

ولا نزاع فى أن هذا الزهد فى تولى القضاء من أصدق الأدلة على يقظة الضمير والتشدد فى محاسبة النفس عند أمثال هؤلاء العلماء الأماثل ، ولكنه قد يكون من بعض الوجوه نوعا من الفضائل السلبية ، وربما كان أدخل فى الزهد وأدل على الإحساس بالعدالة وتقديرها وأقرب إلى الفضائل الإيجابية قبول الاضطلاع بمهمة القضاء ثم مواجهة القاضى للأمراء الأقوياء والحكام ذوى السطوة والنفوذ والمكانة العالية والجاه العريض ، وإشعارهم بقوة القانون وإخضاعهم لسلطان

العدالة ، ومن أمثال ذلك موقف القاضى نصر بن ظريف اليحصبى من الأمير عبد الرحمن الأول فى قضية حبيب القرشى ، وذلك أن حبيباً هذا دخل على الأمير عبد الرحمن فشكا إليه القاضى ، وذكر له أنه يريد أن يسجل عليه فى ضيعة قيم فيها وأدعى عليه الاغتصاب لها ، ولاذ بالأمير من إسراع القاضى إلى الحكم عليه من غير تثبت ، فأرسل الأمير إليه . وكلمه فى حبيب ونهاه عن العجلة عليه ، فخرج ابن ظريف من يومه وعمل بضد ما أراد الأمير ، وأنفذ الحكم ، وبلغ الخبر حبيباً فدخل إلى الأمير مغيظاً متغيراً ، فذكر له ما عمله القاضى ، ووصفه بالاستخفاف بأمره والنقض له وأغراه به ، فغضب الأمير على القاضى واستحضره فقال له « من أمرك على أن تنفذ حكما وقد أمرتك بتأخيره والإناءة فيه » فقال له القاضى « قد منّ عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإنما بعثه الله بالحق ليقضى به على القريب والبعيد ، والشريف والدنىء ، وأنت أيها الأمير ما الذى حملك على أن تتحامل لبعض رعيتك على بعض ، وأنت تجد مندوحة بأن ترضى من مالك من تعنى به وتمد الحق لأجله ؟ » فقال له الأمير « جزاك الله يا ابن ظريف خيراً ! » ويقول النباهى عن هذا القاضى « كان من زهده وورعه إذا شغل عن القضاء يوماً واحداً لا يأخذ لذلك أجراً » .

ومن هذه المواقف الرائعة موقف القاضى محمد بن بشير مع الأمير الحكم حين رفض شهادة الحكم ، فذهب إلى الحكم أحد رجاله وقال له « ذهب سلطاننا وأزيل بهاؤنا ، أيجترىء هذا القاضى على رد شهادتك والله تعالى قد استخلفك على خلقه ، وجعل الأمر فى دمائهم وأموالهم إليك ؟ هذا مالا ينبغى أن تحتمله » وجعل يغريه بالقاضى ويحرضه على الإيقاع به ، ولكن الأمير كان رجلا عاقلا حازماً مقدراً لتبعاته فأجاب « القاضى رجل صالح لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وقد فعل الذى يجب عليه ، ولست أعارض القاضى فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله » ولما عوتب القاضى قال لمن عاتبه « ياعاجز ! ألا تعلم أنه لابد من الإعذار فى الشهادات ؟ فمن كان يجترىء على الدفع فى شهادة الأمير لو قبلتها ؟ وإن لم أعذر بخست الشهود عليه بعض حقها » .

والشىء الجميل هو أن هؤلاء الأمراء الكبار الأعلام أنفسهم كانوا يؤمنون بالعدالة ، فكان الأمير الحكم يقول « إنا معشر بنى مروان لا تأخذنا فى الله لومة لائم ، وما نرى الله رفع ملكنا ، وجمع بهذه الجزيرة فلنا ، وأعلى فيها ذكرنا إلا بإقامة حدوده ، وإعزاز دينه ، مع مجانبة الأهواء المضلة » .

والواقع أن احترام العدالة وإكبار شأن الشريعة والقانون والتزام الحدود هى مسالك الدول ، وأساس الحضارة الحقة ، وأعز مطالب الإنسانية ، وفى كتاب تاريخ القضاة للنباهى الكثير من أمثال هذه الأخبار الحسان ، والمواقف المشرقة مع تحرى الدقة فى الرواية ، وتحقيق الخبر .

المقرىء أو المؤرخ الذواقة

المراجع المعروفة فى تاريخ الأندلس وأدبها وسائر ألوان حضارتها وجوانب ثقافتها قليلة نادرة ، ولا خلاف فيما أرجح أن من أقوى أسباب ذلك فقدان الكثير من الكتب الأندلسية القديمة والمؤلفات النفيسة خلال النكبات المترادفة التى أصابت المسلمين حين إجلائهم عن تلك البلاد ، وقد جهد المتعصبون من الأسبانيين فى التعفية على آثار الإسلام فى بلادهم وإزالة معالم حضارته ، وكان تحريق الكتب أو إغراقها فى الأنهر فى مقدمة تلك الأعمال المؤذية المخربة الضارة بالعلم وحياة الفكر ، ومن دواعى الأسف أن الطغاة المستبدين والحمق المتعصبين كثيراً ما يتورطون فى هذه الخطة ويجترحون هذا الإثم حتى فى أوقات الاستنارة وفى ظلال الحضارة .

ومن أوفى تلك المراجع المعروفة فى تاريخ الأندلس ومختلف أخبارها وأحوالها - إن لم يكن أوفاها قاطبة - كتاب العلامة المغربى العباس أحمد بن محمد المقرى ، فهو أحفلها بتاريخ الأندلس ، وأجمعها لأحوالها الأدبية والسياسية والاقتصادية ، وأخبار رجالها الأعلام ، وشعرائها الفحول ، وكتابها المبرزين ، وأشعارهم الرائقة الرائعة ، ورسائلهم البليغة الممتعة ، ونوادرهم الطريفة ، وأجوبتهم المسكتة ، وسائر براعاتهم وعبقرياتهم .

ولم يكن هذا الرجل الفاضل المفتون بالأندلس وأخبارها ، والمعجب بحضارتها ورجالاتها ، أندلسى الأصل والنشأة ، ولم ير الأندلس رأى العين ، فقد كان المسلمون فى عصره قد غلبوا على أمرهم فى الأندلس ، وأخرجوا منها ، وطردت البقية الباقية منهم أو ذابت وفنيت فى الكثرة الأندلسية الغالبة ، وتقلص ظلهم عنها تقلصاً تاما ، ولكن المقرى ظل مع ذلك شديد التعلق بأخبار الأندلس ، دائم الاطلاع على تاريخها وأدبها وعلومها ، مثابراً على استقصاء تلك الأخبار ، وجمع شتى

المعلومات ، وطلبها فى مظانها الأصيلة ، ومراجعها الأمينة الموثوق بها .

وقد ولد المقرى فى تلمسان ببلاد الجزائر ونشأ بها ، وحفظ القرآن ، وقرأ وحصل بها على عمه أبى عثمان سعيد بن أحمد المقرى مفتى تلمسان ، وكان عالماً فاضلا وفقيهاً متمكناً ، وكان المقرى يقول عن بلدة تلمسان إنها بلدة عظيمة من أحاسن بلاد المغرب ، وإنها فى يد العثمانيين ، وهى الحد المضروب بين سلطانهم وسلطان المغرب.

والمقرى نسبة إلى قرية من قرى تلمسان ، وإليها نسبة آبائه ، ويقول الأستاذ ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الإسلامية إن المقرى قد ولد سنة ١٠٠٠ هجرية ، ولم يذكر بالذات المرجع الذى اعتمد عليه فى ذلك ، وقد خلت المراجع التى تصفحتها واستشرتها من ذكر سنة ميلاده ، ومهما يكن من الأمر فإنى أشك فى صحة هذا التاريخ ، وأرجح أن المقرى قد ولد قبل ذلك بعشر سنوات على أقل تقدير ، والمقرى نفسه يقول فى نفح الطيب عند ذكر تلمسان « وهى مدينتنا علقت بها التمائم ، وبها ولدت أنا وأبى وجدى وجد جدى ، وقرأت بها ونشأت إلى أن رحلت عنها فى زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ، ثم رجعت إليها عام عشرة وألف ، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف إلى أن ارتحلت عنها إلى المشرق فى أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف » وواضح من هذا النص أنه رحل عن تلمسان فى زمن «الشبيبة» فإذا كان قد ولد سنة ١٠٠٠ فإن عمره حين رحيله عن تلمسان لم يكن يتجاوز التاسعة ، وأظن أن الإنسان لا يقول عن نفسه وهو فى التاسعة « إنه فى زمن «الشبيبة» وقد توفى المقرى سنة ١٠٤١ هجرية ، وكان بلا أدنى خلاف رجلا ممتازاً ناشط الهمة ، ناهض العزم ، جيد التحصيل ، متوفراً على الدرس ، ولكن إنتاجه الغزير وتواليفه الجمة ليست عمل رجل لم يعش فى الدنيا سوى واحد وأربعين عاماً ، وبخاصة إذا علمنا أن الرجل لم يكن منقطعا للتأليف ، وكان له من أعمال وظيفته وأسفاره ورحلاته ما يستنزف وقته ويستأثر بجانب من جهده .

ولما عاود المقرى الرجوع إلى فاس استقر بها ، ثم ولى الإمامة والخطابة ،

وفى أواخر سنة ١٠٢٧ اعتزم الارتحال إلى المشرق تاركاً المنصب والأهل والوطن ، قاصداً حج البيت الحرام ، والظاهر أن الظروف السياسية المضطربة هى التى استوجبت هذا الرحيل فقد ساءت الأحوال فى المغرب بعد وفاة ملكه أحمد المنصور لوقوع الخلاف بين أولاده ، وقد أنشد صاحب مراكش متمثلا قول الحضرمى(١) :

محبتى تقتضى مقامى ... وحالتى تقتضى الرحيلا
هذان خصمان لست أقضى ... بينهما خوف أن أميلا
فلا يزالان فى خصام ... حتى أرى رأيك الجميلا

فأجابه صاحب مراكش :

لا أوحش الله منك قوماً ... تعودوا صنعك الجميلا

وركب البحر إلى مصر ، وكانت الرحلة شاقة مخيفة عانت فيها السفينة أهوال البحر وشدائده ، وقد وصف لنا هذه الرحلة البحرية فى عبارات قوية يقول منها ولما ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر . شاهدنا من أهواله وتنافى أحواله مالا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه ، استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر ، وطارت إلينا من شراعه كواسر ، قد أزعجتها أكف الريح من وكرها لما نبهت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها ، فسمعنا للجبال صفيراً ، وللرياح دويا عظيما وزفيراً ، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مجيراً وخفيراً ، وأيسنا من الحياة لصوت العواصف والمياه ، فلا حيا الله ذلك الهو المزعج ولا بياه ، والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق ، فتخال الجو يأخذ بنواحيها وتجذبها أيديه من قواصيها حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها وعنان السحب يخطف فى استقلالها ، وقد أشرفت النفوس على التلف

---

(١) الجزء الأول من نفح الطيب صفحة ٤٤/٤٥ .

من خوفها واعتلالها ، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساءت الظنون ، وتراءت فى صورها المنون والشراع فى قراع مع جيوش الأمواج ، أمدت منه الأفواج بالأفواج ، ونحن قعود كدود على عود ، ما بين فرادى وأزواج ، قد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود ، أغوار ولا نجود ، إلا السماء والماء وذلك السفين ، ومن فى جوف قبره دفين ، مع ترقب هجوم العدو فى الرواح والغدو : فزادنا ذلك الحذر الذى لم يبق ولم يذر على ما وصفناه من هول البحر قلقاً ... وتشتت أفكارنا فرقاً ، وذبنا أسى وندماً وفرقاً إلى أن قضى الله بالنجاة ، وكل ما أراده فهو الكائن ... فرأينا البر وكأننا لم نره وحصل بعد الشدة الفرج ، وزار القاهرة بعد نجاته من أخطار هذه الرحلة المزعجة ، وتابع رحلته إلى الحجاز فى أواخر سنة ١٠٢٨ وطاف بالأماكن المقدسة وعاد إلى مصر بعد الحج ، وتزوج بها من السادة الوفائية ، ولم يلق فى مصر على ما يظهر ماكان يؤمل من طيب الإقامة والحفاوة والتقدير والتشجيع ، وقد عبر عن ألمه المر الوجيع فى قوله :

تركت رسوم عزى فى بلادى   وصرت بمصر منسى الرسوم
ورضت النفس بالتجريد زهدا   وقلت لها عن العلياء صومى
ولى عزم كحد السيف ماض   ولكن الليالى من خصومى

ثم زار بيت المقدس سنة تسع وعشرين وألف ، وكرر منها الذهاب إلى مكة ، ووفد على طيبة سبع مرات وأملى بها دروسا عديدة ، ورحل من مصر إلى بيت المقدس فى سنة ١٠٣٧ وألقى بعض الدروس فى المسجد الأقصى ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع إلى دمشق فأعجب بها ، وأنزلته المغاربة عند قدومه إليها فى مكان لا يليق به ، فأرسل إليه الشاعر الأديب أحمد بن شاهين مفتاح مدرسة الجقمقية ومع المفتاح هذه الابيات :

كنف المقرى شيخى مقرى   وإليه من الزمان مفرى

كنف مثل صدره فى اتساع ... وعلوم كالبحر فى ضمن بحر
أى بدر قد أطلع الغرب منه ... ملأ الشرق نوره أى بدر
أحمد سيدى وشيخى وذخرى ... وسمي وذاك أشرف فخرى
لو بغير الأقدام يسعى مشوق ... جئته هائما على وجه شكرى

فأجابه المقرى بأبيات منها :

أى نظم فى حسنه حار فكرى ... وتحلى بدره صدر ذكرى
طائر الصيت لابن شاهين ينمى ... من بروض الندى له خير وكر
أحمد الممتطين ذروة مجد ... لعوان من المعالى وبكر
حل مفتاح فضله باب وصل ... من معانى تعريفه دون نكر
يا بديع الزمان دم فى ازديان ... بالعلى وازدياد تجنيس شكر

وراقت المقرى دمشق فاستوطنها أياما ، وأملى صحيح البخارى فى الجامع الأموى ، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما اتفق له من الحظوة وإقبال الناس ، وجرت بينه وبين أدبائها وعلمائها مطارحات شتى ، وكان أكثر أدبائها إقبالا عليه وتعظيما له الأديب أحمد بن شاهين القبرسى الأصل، وقد تركت فى نفسه هذه الزيارة أجمل الأثر وأبقاه ، فعقد فى كتابه نفح الطيب فصلا يتعلق بالشام وأهلها وأورد فى مدحها أشعاراً ، ومن شعره فى مدحها قوله :

محاسن الشـام جلت ... عن أن تقاس بحـد
لولا حمى الشرع قلنا ... ولم نقف عند حـد
كأنهـا معجـزات ... مقرونة بالتحـدى

وتغنى بجمال دمشق ومحاسنها فى أبيات كثيرة ومقطوعات متعددة ، ثم عاد إلى مصر من هذه الرحلة الموفقة ، وسافر إلى دمشق مرة أخرى فلقى من الإكرام والحفاوة ما لقيه فى المرة الأولى ، ودخل مصر واستقر بها مدة يسيرة ، ثم طلق

زوجته الوفائية وأراد العودة إلى دمشق فأدركته الوفاة فى سنة ١٠٤١ ودفن بمقبرة المجاورين .

وقد ذكر لنا المقرى فى المقدمة الضافية التى صدر بها كتابه القيم « نفح الطيب » سبب تأليف هذا الكتاب ، ويتبين منها أنه خلال إقامته بدمشق كان كثيراً ما يتجاذب أخبار أعلام الأدب مع أدباء دمشق ، وكان ينجر الكلام إلى ذكر البلاد الأندلسية فيورد المقرى بدائع بلغائها ، ويذكر من كلام وزيرها الشهير لسان الدين بن الخطيب ما تقتضيه المناسبة ، ويكشف لهم عن تصرفه فى فنون البلاغة ، وقدرته الفائقة فى النثر والنظم والتأليف ، فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم لهجوا بذكر لسان الدين دون غيره ، وعلق بقلوبهم ، واعترفوا ببراعته ، واستحسنوا كلامه ، وطلب منه صديقه الأديب الشاعر أحمد بن شاهين أن يتصدى للتعريف بابن الخطيب فى مؤلف خاص يعرب عن أحواله وبدائعه ، وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ، ويذكر مفاخره ومآثره وما له من النظم والنثر والمؤلفات الفائقه الرائعة التى ألفها ، وقد استهول المقرى الإقدام على ذلك فى بادئ الأمر ، وكان من أسباب إحجامه عدم توفر الكتب اللازمة للقيام بهذا العمل ، إذ كان قد خلف أكثر كتبه بالمغرب وغلبته الهموم والأحزان على خواطره ، ولكن صديقه الشاهينى لم يترك له فسحة ولا مندوحة ، ولم يقبل منه عذراً ، وكرر عليه الإلحاح حتى عزم على الاستجابة لرجائه ، والنزول على حكمه ، لما كان لهذا الصديق الوفى الحفى من مكانة فى نفسه ، وقد وعده بالشروع فى المطلب ومباشرة التنفيذ عند الوصول إلى القاهرة ، وخرج من دمشق إلى مصر وشرع بعد الاستقرار بها فى التأليف ، وكتب نبذة من الكتاب ، وتوقف بعد ذلك عن المضى فى إتمامه ، فوافته رسالة من صاحبه الشاهيى يستنجزه وعده ، ويحضه على إتمامه ، فأثر فى نفسه هذا الاهتمام ، وحفزه على استئناف العمل ، ومتابعة التأليف ، وأجد نشاطه ، فجمع من مقيدات أخبار لسان الدين حتى استوفاها ، وخطر له بعد ذلك أن يذكر جانباً من أخبار الأندلس ، ومفاخرها الباسقة ، ومآثر أهلها ومزاياهم وخصائصهم ، وشجعه على ذلك أنه كان معنياً

بأخبار الأندلسيين أثناء وجوده فى المغرب، وجمع طائفة كبيرة منها، ولم يستصحب معه منها سوى النزر اليسير ، ومن ذلك النزر اليسير أتحف قراء العربية بهذه الموسوعة القيمة النادرة .

والظاهر أن الطريقة التى اتبعها فى تأليف كتابه كانت طريقته التى يؤثرها بعد التفكير والتروية ، فهو يجعل المترجم له نواة يجمع حولها الأخبار الجمة ، والمعلومات المستفيضة ، ويتخذها محوراً يدير حوله الموضوع ويؤالف بين شوارده ويضم متناثره ، وهو يحاول أن يفهم الرجل عن طريق فهم عصره ، واستقصاء معارف زمنه ، والإحاطة بالظروف التاريخية التى مهدت له السبيل ، واستفتحت له المغلق وقربت له البعيد ، وقد جرى على هذا الأسلوب فى كتابه المعروف المسمى « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض » واتخذ من القاضى عياض نواة لحشد المعلومات الأدبية والتاريخية ، ولم يكتف بأخبار عصره ومصره ، بل استوعب أخبار الأجيال السابقة لجيله .

وقد قسم كتابه « نفح الطيب » قسمين ، كل منهما مستقل بموضوعه ، فالقسم الأول يتناول أخبار الأندلس ، وفيه ثمانية أبواب ، الباب الأول فى وصف جزيرة الأندلس ، وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها ، ووفور خيرها ، واشتمالها على كثير من المنافع والمحاسن ، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور ، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور ، والباب الثانى فى إلقاء بلاد الأندلس للمسلمين بالقياد وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، والباب الثالث فى سرد بعض ما كان للدين فى الأندلس من العز والقهر للعدو وأعمال أهلها فى الجهاد، والباب الرابع فى ذكر قرطبة مقر الخلافة الأموية وجامعها ذى البدائع الباهرة والإشارة إلى الزهراء الناصرية والعامرية ، ووصف جملة من متنزهات تلك الأقطار ومصانعها ، والباب الخامس فى التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق ، ومدح جماعة من أولئك الأعلام ذوى الألباب الراجحة وذكر ما تقتضيه المناسبة من كلامهم ، والباب السادس فى ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق والتعريف بهم ، والباب السابع فى نبذة مما امتاز به أهل الأندلس

من توقد الأذهان وجملة من أجوبتهم الدالة على لوذعيتهم وألمعيتهم ، والباب الثامن في ذكر تغلب العدو على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها ، وتفريقه بين ملوكها ورؤسائها بمكره حتى تم استيلاؤه عليها واستغاثة من بها بالنظم والنثر بأهل ذلك العصر من سائر الأقطار .

أما القسم الثانى فهو خاص بالتعريف بلسان الدين بن الخطيب وذكر أبنائه وما يناسبه من ذكر العلماء الذين اقتضى ذكرهم الاستطراد وشجون الحديث ، وفيه أيضا ثمانية أبواب ، فالباب الأول فى ذكر أولية لسان الدين وذكر أسلافه والباب الثانى فى بيان نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ومساعدة الدهر له ثم قلبه له ظهر المجن ، وما لقى من إحن الحاسدين والكائدين، وذكر قصوره وأمواله وغير ذلك من أحواله إلى وفاته ، والباب الثالث فى ذكر مشايخه ، والباب الرابع فى ذكر مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إليه وثناء غير واحد من أهل عصره عليه ، والباب الخامس فى إيراد جملة من نثره ونظمه وما يتصل بذلك من أزجاله وموشحاته ، والباب السادس فى مصنفاته فى الفنون ومؤلفاته ما كمل منها أو ما عاقه الموت عن إتمامه ، والباب السابع فى ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه والمقتبسين من أنواره ، والباب الثامن فى ذكر أولاده المقتفين آثاره الحميدة ووصيته لهم وما يتبع ذلك من المناسبات .

وكان اسم الكتاب أولا « عرف الطيب فى التعريف بالوزير بن الخطيب » فلما ألحق به أخبار الأندلس وأفاض فيها جعل اسمه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » .

وهذا الكتاب الحافل من خير الوثائق الأدبية ، وأنفس المصادر فى تاريخ الأندلس بوجه عام ، وفيه مجموعة هائلة من المعلومات التاريخية والجغرافية والاجتماعية والأدبية منقولة من كتب مختلفة أكثرها مفقود الآن، وهذا مما يجعل لهذا الكتاب قيمة لا تقدر ، ويضعه فى طليعة المراجع الأولى لتاريخ أسبانيا

الإسلامية من أيام الفتح إلى آخر أيام استردادها ، وفى تاريخ الحقبة الأخيرة هو المرجع الوحيد .

ومؤلف نفح الطيب علاوة على صبره فى الجمع وقدرته على التنسيق والتأليف شاعر مجيد قد لا يرتفع شعره إلى مستوى شعر كبار الشعراء ، ولكنه كذلك لا ينزل إلى حضيض ما يسمى بشعر العلماء المعروف بالغثاثة والركاكة والجفاف والذى يبدو فيه ضعف الخيال ونضوب الإحساس ، وفى شعر المقرى سلاسة وليونة وعذوبة ومائية ، وعليه مسحة من جمال الفن ، وهو يدل على نفس حساسة وشعور مرهف ، ويمتاز نثره بإشراق الديباجة ومتانة المبنى والقدرة على التصرف فى استعمال اللفظ ، وهو أقرب فى نثره إلى طريقة الأندلسيين منه إلى طريقة المشارقة ، ومكانته الأدبية لا تقوم على نفح الطيب وحده ، فمؤلفاته الأخرى كثيرة منوعة فى طليعتها كتاب أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، وقد كثرت مؤلفاته وعظم إنتاجه لأن الرجل كان متعدد الجوانب دائم التحصيل ، وهو من الكتاب القليلين الذين دانوا قراء اللغة العربية بكثرة ما كتبوا وألفوا وبذلوا من الجهد المثمر النافع .

بعض الشعراء المؤرخين

بين التاريخ والأدب علاقة أكيدة ونسب لاصق حتى قيل إن التاريخ والأدب توأمان ، وقد اشتهر كبار المؤرخين قديما وحديثا وفى مختلف الآداب الأممية بقوة الأداء ، وعلو البيان ، وسخروا اللغة أداة طيعة لرواية الحوادث ، وتصوير الأشخاص ، ووصف المواقف والمشاهد ، وقد مرت فترة حدث فيها رد فعل يرمى إلى إنكار علاقة الأدب بالتاريخ ، ويحاول أن يجعل التاريخ علماً خالصا لا شأن له بالأدب ، وكان من أكبر أسباب هذه النزعة الانتصارات الباهرة التى أحرزتها العلوم الطبيعية ، وقد أغرى ذلك فريقاً من المؤرخين بمحاولة الاستفادة من المناهج العلمية فى دراسة التاريخ وكتابته وإسباغ الصفة العلمية على التاريخ فى جملته ، وقد أكسب ذلك المؤرخين بعض الدقة العلمية ، والميل إلى الاحتياط فى التحرى ، ولكن اتضح لهم بعد ذلك أن دراسة النوع الإنسانى شيء يختلف عن دراسة النباتات والحشرات أو خصائص المادة والذرات ، فكل فرد له حياته الخاصة المتميزة التى لا تستطيع أن تتخذها قانوناً لسائر حيوات الأفراد الآخرين ، وليس فى المستطاع أن تحلل حياة أى إنسان تحليلا علمياً يستنبط منه القوانين والقواعد وتستخرج النظريات ، فالإنسان أكثر تعقيداً وتراكبا وأشد تنوعاً وأوفر روحانية من أن تستقصى تحليله الأساليب العلمية ، ومجال التاريخ هو الحدس الموفق والنظر الملهم الذى توحيه الإحاطة بالحوادث واستيعاب الروايات المختلفة ، والتاريخ يتناول القوى العقلية والبواعث الروحية والدوافع النفسية ، وهى أشياء لا يسهل إخضاعها للبحث العلمى الخالص ، لأنها لا توزن بالمعايير ، ولا توضح فى أنابيب الاختبار .

وقد أشار شوبنهاور إلى العلاقة بين الشعر والتاريخ فقال « حقيقة أن التجربة والتاريخ يعلمانا أن نعرف الإنسان ولكنهما يجعلاننا نعرف « الناس » لا « الإنسان »

أى أنهما يقدمان لنا ملاحظات عن سلوك الناس يمكن أن نستخلص منها قاعدة أكثر مما يقدمان لنا لمحات عميقة عن طبيعة الإنسان الداخلية كالشعر ، على أن هذا لا يمنع أن التاريخ والتجربة فى بعض الأحيان يقدمان لنا هذه اللمحات ، وعند شوبنهاور أن الشعر هو الذى يقدم للبشرية صورة صحيحة عن « فكرة الإنسان » وأن المؤرخ قد يستطيع ذلك إذا نظر إلى التاريخ نظرة فنية واستطاع أن ينفذ إلى الفكرة المستقرة خلف المظاهر العارضة المتقلبة ، أما كارلايل فإنه يخالف شوبنهاور فى ذلك بعض المخالفة ويرى أن التاريخ هو الشعر الحقيقى كما فى قوله « إن التاريخ بعد كل شىء هو الشعر الحقيقى ، والحقيقة الواقعة إذا فسرت تفسيراً صحيحاً أعظم من مبتكرات الخيال ، بل إن الشعر الحقيقى الخالص لا يكون إلا فى التفسير الصحيح للحقيقة »

فالتاريخ ليس لونا من ألوان الأدب فحسب ، بل هو وثيق العلاقة بأسمى ضروب الأدب وهو الشعر ، وقريب الشبه به ، والواقع أن حاضرنا النثرى فى كل لحظة من اللحظات يتساقط ويهوى فى ليل الماضى الشعرى ، والمؤرخ الذى يستطيع أن ينشر لنا صحف الماضى المطوية لا بد أن يستميله هذا الماضى ويثير عواطفه وشجونه ويأخذ عليه مسالك خياله وسبحات أوهامه . أى لا بدأن يصبح شاعرا إلى حد ما ، ومن ثم ميل الشعراء إلى الثقافة التاريخية ، وحرصهم على استحضار صور الماضى واستطلاع أخباره وحوادثه ، ففى كل شاعر يكمن المؤرخ وفى كل مؤرخ يتوارى الشاعر ، والذى يقرأ كتاب تاريخ الثورة الفرنسية للمؤرخ توماس كارلايل يعجب كيف انقلب المؤرخ شاعراً ملتهب الخيال . رائع البيان ، يعرض عليك الصور النابضة بالحياة ، والمشاهد الحافلة بالحركة ، كما أن من يقرأ رواية إيجمونت للشاعر جيتى أو رواية أنطونى وكليوباترا لشكسبير أو روايه ولنستاين للشاعر شيلر كيف تحول الشاعر إلى مؤرخ يقدم لنا لباب التاريخ وجوهره ، لا قشوره الفانية ، أو تفصيلاته القليلة القيمة العديمة الجدوى .

فالشعر كثيراً ما يختلط بالتاريخ فى آداب الأمم المختلفة ، وكذلك التاريخ

كثيراً ما يمتزج بالشعر ، ويتجلى ذلك فى تاريخ الأدب العربى فى صورة واضحة ، بل ربما كانت هناك أسباب اجتماعية وسياسية جعلت ذلك أوضح فى الأدب العربى بوجه خاص ، فالكثير مما نعلمه عن حوادث عرب الجاهلية وأخبارها مستمد من الشعر ، والكثير من حوادث العصر الأموى والعصر العباسى لا نستطيع أن نقترب من تصورها وفهم حقيقتها دون الاستعانة بالشعر .

وأثر الثقافة التاريخية باد فى كبار الشعراء الممثلين للأدب العربى . فالمتنبى مثلا فى القصيدة التى نظمها بمناسبة اصطلاح الأستاذ كافور والأمير أبى القاسم بعد الوحشة التى جرت بينهما يقول :

أنسمت الخلف بالشراة عداها   وشفى رب فارس من إياد
وتولى بنى اليزيدى بالبصـــرة حتى تمزقوا فى البلاد
وملوكاً كأمس فى القرب منا   وكطسم وأختها فى البعاد

ويظهر أثر ثقافة أبى تمام التاريخية فى القصيدة التى عزى بها مالكا بن طوق عن أخيه القاسم بن طوق . وهو يخاطبه قائلا :

فإن تك مفجوعا بأبيض لم يكن   يشد على جدواه عقد التمائم
بفارس دعمى وهضبة وائل   وكوكب عتاب وجمرة هاشم
فمن قبله ما قد أصيب نبينا   أبو القاسم النور المبين بقاسم
وخبر قيس بالجلية فى ابنه   فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
وقال على فى التعازى لأشعث   وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة   فتؤجر أم تسلو سلو البهائم
وللطرفات يوم صفين لم يمت   خفاتا ولا حزناً عدى بن حاتم

ويختم هذا العرض التاريخى بهذين البيتين الحكيمين :

خلقنا رجالا للتصبر والأسى   وهن نساء للبكا والمآتم

وهل من حكيم ضيع الصبر بعدما رأى الحكماء الصبر ضربة لازم

وثقافة أبى العلاء التاريخية تتجلى فى رسالة الغفران ، وتكاد تظهر فى كل صفحة من صفحات اللزوميات وأبو العلاء هو القائل :

ما كان فى هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندى من أخبارهم طرف

وفى مفاخرات الأخطل والفرزدق وجرير كثير من الإشارات التاريخية ، أنظر مثلا إلى قول الفرزدق :

لولا فوارس تغلب ابنة وائل دخل العدو عليك كل مكان
ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا نارين أشرفتا على النيران

وهو فى هذين البيتين يشير إلى يوم خزاز الذى انتصر فيه العدنانيون على اليمنيين وكان كليب وائل من الأبطال البارزين فى ذلك اليوم المشهور .

والتاريخ من الموضوعات التى شغلت جزءاً كبيراً فى آداب اللغة العربية ، فالمؤرخون فى تاريخ الأدب العربى كثيرون ، والمؤلفات التاريخية كثيرة موفورة برغم ضياع الكثير منها ، وقد كان من أقوى البواعث على نشأة كتابة التاريخ عند العرب كما قدمت العناية بتفسير القرآن والحرص على تفهم معانيه ومضامينه وأحكامه ، وقد تناول القرآن حوادث شتى من الحوادث التى كانت جارية فى عهد نزوله وفيه إشارات إلى حوادث أخرى سابقة لنزوله ومن ثم وجبت معرفة مناسبة نزول الآيات ، وكانت الصحابة تعرف الكثير منها ولكن الأجيال التالية كانت تجهلها ، والقرآن نفسه لا يذكرها مفصلة مستوفاة وإنما يوجز فى الإشارة إليها ويكتفى باللمحة الدالة ، وفيه كذلك إشارات إلى الأمم القديمة والدارس المتفقه يسره أن يزيد علمه بتلك الحوادث ويلم بأطرافها ويستوعبها ، كما أن الحاجة إلى التوسع فى التشريع جعلت البحث التاريخى ضرورة من الضرورات وقد استلزم ذلك الاجتهاد فى جمع الأحاديث وتحرى أخبار رواتها ونقلتها ، واهتمام المسلمين بمعرفة أخبار النبى وأبطال الإسلام استلزم بذل مجهود كبير ويعزى إليه نشوء الجغرافيه وكتابة التراجم والسير .

ونرى من ذلك أن التاريخ قد نشأ إلى حد كبير باعتباره شرحاً لآيات القرآن من ناحية ومعينا على التثبت من صحة الأحاديث وأخبار النبي من ناحية أخرى ، على أنه كان كذلك شرحاً للشعر العربي من وجوه كثيرة ، وقد كان الشعر عند العرب فى جاهليتهم طريقة قبلية لتسجيل التاريخ ، والمؤرخون المتقدمون يذكرون الشعر لبيان بعض الحوادث الهامة وتوضيح ما غمض من أخبارها ، والشعر العربي بطبيعته لا يمكن الناظم من عرض المعلومات الدقيقة المفصلة فى يسر وسهولة ، ويكتفى الشاعر فى العادة بذكر أسماء الأمكنة والأشخاص الذين برزوا فى الحوادث وأبلوا فيها بلاء حسناً ، ووقفوا منها مواقف مشرفة فى النضح عن القبيلة ومدافعة أعدائها ، ولذلك كان من اللازم الاستعانة بالتاريخ للاستزادة من معرفة هذه الحوادث التى يشير إليها الشعراء إشارات سريعة موجزة ، وقد أشار زهير بن أبي سلمى فى معلقته المعروفة إلى ذلك الخلاف الخطير الذى وقع بين قبيلتى عبس وذبيان ، وأدى إلى نشوب حرب بينهما ، ونوه بالسيدين اللذين سعيا فى رأب الصدع وجمع شمل القبيلتين ، وهما الحارث بن عوف وهرم بن سنان ويقال إنهما خارجة بن سنان والحارث بن عوف فقال عنهما :

يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

ولكنها إشارات تستوجب التعليق والشرح والتفصيل لتوضيحها وجلاء غامضها ، لأن الشعر العربي — على الأقل فى تلك الفترة — لم يكن يتسع لمثل هذا التفصيل ، ومعظم الأشعار التاريخية التى تشير إلى الحروب التى وقعت بين القبائل المختلفة فى الجاهلية أو صدر الإسلام لا تطيل السرد ، ولا تفصل الحوادث تفصيلا يغنى عن الاعتماد على المؤرخين ، ولذلك كان لابد من الاستعانة بالتاريخ على فهم الشعر وتكوين صورة واضحة عن الحوادث التى يشير إليها .

وفى القرن الثالث الهجرى ظهرت محاولة جديدة فى الشعر التاريخى تحاول التفصيل والإطالة وبيان الحوادث مسلسلة متتابعة ، وقد قام بهذه المحاولة عبد الله

ابن المعتز — الشاعر الوصافة المجيد الذي ولى الخلافة يوما وليلة — فنظم أرجوزة أسماها «كتاب سيرة الإمام» فصل فيها أخبار الخليفة العباسي المعتضد حتى وفاته في سنة ٢٨٩ هجرية وهو يقول في مطلعها :

باسم الإله الملك الرحمن ذي العز والقدرة والسلطان
الحمــد لله على آلائه أحمــده والحمد من نعمائه
أبدع خلقاً لم يكن فكانا وأظهر الحجة والبيانا
وجعــل الخاتم للنبوة أحمد ذا الشفاعة المرجوة
الصادق المهذب المطهرا صلى عليه ربنا فأكثرا
مضى وأبقى لبني العباس ميراث ملك ثابت الأساس
برغم كل حاسد يبغيــه يهدمــه كأنه يبنيه
هـذا كتاب سير الإمام مهذباً من جوهر الكلام
أعني أبا العباس خير الخلق للملك قول عالم بالحق
قام بأمر الملك لما ضاعا وكان نهباً في الورى مشاعا

وهو يمضي في القصيدة على هذا النسق مشيراً إلى كثير من الحوادث التي وقعت في عهد المعتضد واصفاً موقفه منها ، وتصرفه حيالها ، وأسلوبه في علاجها ،

وقد نحا نحوه أبو فراس في قصيدته الرائية المشهورة ومطلعها :

لعل خيال العامرية زائر فيسعد مهجور ويسعد هاجر

وقد ذكر فيها أعمال أجداده ، وعدد مآثرهم ، وفاخر بمواقفهم ، ونوه ببطولتهم وكرمهم ثم عرج على سيف الدولة فمدحه قائلا :

إلا قل لسيف الدولة القرم إنني على كل شيء غير وصفك قادر
فلا تلزمني خطة لا أطيقها فمجدك غلاب وفضلك باهر

ولو لم يكن فخرى وفخرك واحد   لما سار عنى بالمدائح سائر

ويذكر أفراداً آخرين من أقاربه مادحاً لهم مثنياً على شجاعتهم وإقدامهم ، ويختتم القصيدة الطويلة التى تجاوزت مائتى بيت من الشعر بقوله :

نطقت بفضلى وامتدحت عشيرتى   فما أنا مداح ولا أنا شاعر

والحقائق التاريخية التى أشار إليها أبو فراس فى قصيدته تستلزم الرجوع إلى المؤرخين واستشارتهم فى تقدير صحتها . فقد كان الرجل شاعراً مفاخراً ، فمن المحتمل إلى حد كبير أن يصنع من الحبة فى أعمال أجداده قبة ، أو أن يضيف إليهم مفاخر لا يستحقونها وينسب لهم مواقف لم يكن لهم فيها شىء من الفضل ، ومن الطبيعى أن يغفل ذكر عيوبهم ومساوئهم وأخطائهم .

ومن هذا القبيل أرجوزة ابن عبد ربه التى ذكر فيها مغازى الخليفة الأموى الأندلسى عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر ، وقد أشرت إليها وذكرت بعض أبياتها فى الفصل الذى عقدته للحديث عن ابن عبد ربه ، وقد قسم القصيدة حسب السنوات فهى على نمط الحوليات التاريخية ، وهى حافلة بمدح عبد الرحمن الناصر وإكباره والإعجاب بمواقفه وأعماله ، وذكر الأماكن التى انتصر فيها عبد الرحمن وأخضع أعداءه وفل شوكتهم ، وفرق جموعهم ، وتصف غزواته ونسفه للحصون المنيعة وفرضه الشروط الشديدة على أعدائه الثائرين ، ونغمة المدح التى التزمها ابن عبد ربه فى أرجوزته تجعله بطبيعة الحال يجور على الحقائق التاريخية بعض الجور خشية أن يجرح شعور الخليفة أو يثير غضبه إذا تحرى الصدق فى تقرير الوقائع وتشدد فى التزامه ، وذكر الوقائع على حقيقتها يقتضى الإشارة إلى مواقف قد يسوء الخليفة ذكرها أو ذكر أعمال قد يروقه إغفال أمرها ، فهى مثل أرجوزة ابن المعتز وقصيدة أبى فراس لا تغنى عن استشارة المراجع التاريخية للتثبت مما ورد فيها .

وربما كانت قصيدة أبى فراس أقرب هذه القصائد الثلاث إلى الشعر وأجدرها

بأن تسمى قصيدة ، ففيها أبيات ممتازة قوية النظم بليغة الأداء ، وتمتاز أرجوزة ابن عبد ربه بالسلاسة والسهولة ، أما أرجوزة ابن المعتز فلها قبل كل شيء فضل السبق والتقدم وإخضاع الشعر العربي لهذا النوع من السرد التاريخي .

وقد سار على هـــذه الطريقة أديب أندلسي آخر من شعراء الذخيرة ، وهو أبو طالب عبد الجبار من أهل جزيرة شقر ، وكان يعرف بالمتنبي ، ويقول عنه ابن بسام(١) « إنه أبرع أهل وقته أدباً ، وأعجبهم مذهباً ، وأكثرهم تفننا في العلوم ، وأوسعهم ذرعاً بالإجادة في المنثور والمنظوم » ثم يسترسل ابن بسام قائلا « وله أرجوزة في التاريخ أغرب فيها ، وأعرب بها عن لطف محله من الفهم ، ورسوخ قدمه في مطالعة أنواع العلم ، وقد أثبتها على طولها لاشتمال فصولها على علم جليل وباع في الخبر طويل » ويتحدث عبد الجبار في المقدمه التي صدر بها أرجوزته قائلا « هي في معنى ما تضمنته كتب التواريخ ، قطفت عيون زهرها ، والتقطت مكنون دررها ، واقتصرت على أقلها دون أكثرها ، مما لا يسع جهله ، وحذفت كل حديث يتغلغل ، وخبر يتسلسل إلا ما زدت حلاه رونقاً ، وبجتلاه تألقاً ، من شأن فتح الأندلس ، وما اتصل بذلك من أخبار أملاكها الدرس إلى وقتنا هذا ، ومن وليها من بني أمية وغيرهم ، وذكرت من ولي الخلافة بالمشرق من بني العباس بعد المطيع إلى وقتنا هذا ، والإمام الآن فيه القائم بأمر الله ابن القادر . وقصدت إلى معنى الاستذكار به لجوامع التاريخ والأخبار ، وسلكت مذهب الاختصار ، رجاء أن تطلعني قريحتي على مغزاه ، وتنشط مني إلى قرب مرماه » ، وهو يقول في أولها :

يقول مهدي الورى المنتظر   هاقا سمعوا ما قلته واعتبروا
أبدأ باسم الله في الترجيز   رب الأنام الملك العزيز
ثم بذكر المصطفى محمد   صلى عليه الله طول الأبد
والطيبون آله الكرام   عليهم الصلاة والسلام

---

(١) الذخيرة لابن بسام القسم الأول من المجلد الثاني من صفحة ٤٠١ إلى ٤٣١ .

وقبل أن يدخل فى موضوع التاريخ مبتدئاً من بدء الخليقة وذرء البرية تحدث فى أرجوزته عن الاستدلال على الصانع تعالى من الصنعة ، وعن العلم والنظر ، والتفكير فى الملكوت ، ومن قبيل ذلك قوله :

يا من يجيل فكره للعبرة　　فى كل موضوع له بالفكرة
أنظر إلى الموات والنبات　　والحيوان نظر استثبات
كيف ترى التكوين فيها ماثلا　　ينبيك أن لقواها فاعلا
يؤلف الأربعة العناصرا　　يمنع من أضدادها التنافرا

ويمضى بعد ذلك متحدثاً عن بدء الخليقة ، ثم الأنبياء المنصوص على قصصهم فى القرآن ، ويتحدث بعد ذلك عن الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من بنى أمية ، ثم الدولة العباسية إلى عهد الخليفة المسترشد (من سنة ٥١٢ هجرية إلى سنة ٥٢٩) وقد كان معاصراً للناظم ، وأتبع ذلك بنظم أخبار دولة بنى أمية بالأندلس حتى سقوطها ، ثم ذكر ملوك الطوائف ، وهو يقول واصفا حكمهم .

فاهملوا البلاد والعبادا　　وعطلوا الثغور والجهادا
واشتغلت أذهانهم بالخمر　　وبالأغانى وسماع الزمر
وزادهم فى الجهل والخذلان　　أن ظاهروا عصابة الصلبان
فاستولت الروم على البلاد　　واستعبدوا حرائر العباد

وقد شدد النكير على ملوك الطوائف تمهيداً لمدحه لدولة المرابطين الذين نظمت فى عهدهم الأرجوزة ، وقد استهل الحديث عنها بقوله :

فإذ أراد الله نصر الدين　　استصرخ الناس ابن تاشفين
فجاءهم كالصبح فى إثر غسق　　مستدركا لما تبقى من رمق
وافى أبو يعقوب كالعقاب　　يجرد السيف عن القراب
ووصل السير إلى الزلاقة　　وساقه ليومها ما ساقه

لله در مثلها من وقعة قامت بنصر الدين يوم الجمعة
وثل للشرك هناك عرشه لم يغن عنه يومه أذفنشه

وختم الأرجوزة بذكر علي بن يوسف بن تاشفين الذى عاصره الناظم ، وهذه الأرجوزة قوية النظم ، حسنة السرد ، تلخص حوادث التاريخ تلخيصاً لا يخلو من نفحة الشعر ، وجمال الفن ، وتستحق أن يلتفت إليها ، ويرجع لها فى كتاب الذخيرة .

وفى قصيدة ابن عبدون التى رثى بها بنى الأفطس إشارات تاريخية بارعة فى أسلوب شعرى مؤثر ، وأحسبها من أجمل القصائد التاريخية فى الأدب العربى ، ودواوين أكثر الشعراء تلقى ضوءاً باهراً على تاريخ العصور التى عاشوا بها ، وكثيراً ما نجد بها أوصافا بارعة للمواقف السياسية والوقائع الحربية والحوادث المعاصرة ، وقد كانت تخدم الغرض الذى تخدمه الصحافة فى عصرنا الحاضر ، وقد كان الشعراء إلى حد كبير يعبرون عن الحوادث المعاصرة ، ويصفون أثرها فى عواطف الشعب ، وليس ذلك بالغريب لأنهم ألسنته الناطقة ، وقلوبه الخافقة ، والعلاقة بين الأدب والتاريخ بوجه عام وبين الشعر والتاريخ بوجه خاص علاقة أكيدة لا انفصام لها ، فالأدب بنثره وشعره والتاريخ يتعاونان على تصوير الحياة ، ووصف تجاربها ، واستخلاص عبرها ، وتفهم أسرارها . وفى أدب العصور الحديثة مجموعة جيدة من الشعر التاريخى البليغ الممتاز أخص منها بالذكر ما نظمه فى هذا الصدد البارودى وشوقى وحافظ وخليل مطران وأحمد محرم والعقاد .

فهرست الموضوعات

الموضوع | الصفحة

مقدمة ١
مؤرخو الطليعة ٤
نشأة التاريخ الإسلامى والطبرى ٢٢
الطبرى أو المؤرخ المحدث ٢٩
ابن عبد ربه أو المؤرخ الأديب ٣٨
المسعودى أو المؤرخ الجغرافى ٤٩
أبو حيان التوحيدى وابن حيان الأندلسى أو المؤرخان الكاتبان ٥٩
الإمام بن حزم أو المؤرخ المحب ٧٤
الفتح بن خاقان أو المؤرخ الفنان ٨٣
ابن بسام أو مؤرخ الأدب ٩٤
الطرطوشى أو المؤرخ السياسى ١٠٣
عبد الواحد المراكشى و أحد مؤرخى الدول ١١٢
ياقوت الحموى أو المؤرخ الجامع ١٢٤
أبو الحسن النباهى أو المؤرخ الفقيه ١٣٢
المقرى أو المؤرخ الذواقة ١٤١
بعض الشعراء المؤرخين ١٥٠

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

باشراف الأستاذ عمر الدسوقى

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القــاهرة

صدر منها :

١ — قصة الملكية فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات . تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور حسن سعفان .

٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمى هلال .

٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .

٤ — كونفشيوس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان .

٥ — الفكاهة فى الأدب العربى (جزآن) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .

٦ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

٧ — تاريخ الفكر الاقتصادى : من سلسلة الاقتصاد السياسى
تأليف الدكتور لبيب شقير .

٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب .

٩ — ابن خلدون ، منشىء علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طبانه .

١١ — الحريات العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة
تأليف الأستاذ طعيمة الجرف .

١٢ — أبو حيان التوحيدى : (جزآن) . من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .

١٣ — هوميروس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور محمد صقر خفاجة .

١٤ — حقوق الإنسان فى الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
١٥ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الأول) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .
١٦ — بوذا : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .
١٧ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان .
١٨ — أبو حنيفة والقيم الإنسانية فى مذهبه : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .
١٩ — مع الصحفى المكافح : « أحمد حلمى » : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور أحمد أحمد بدوى .
٢٠ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الثانى) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .
٢١ — من قضايا اللغة والنحو : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ على النجدى ناصف .
٢٢ — الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور ابراهيم أحمد العدوى .
٢٣ — الذوق الأدبى : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور على محمد الجندى .
٢٤ — تيتو ، حياته وسياسته : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الاستاذ ابراهيم حسن حنبل
٢٥ — بعض مؤرخى الإسلام : من السلسلة التاريخية
تأليف الأستاذ على أدهم

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

الكتاب التالي من هذه السلسلة :

(صلاح الدين الأيوبي)

بقلم

الأستاذ ضياء الدين الريس

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة الرسالة
شارع حمودة المتاول ٣ عابدين